عذراء دنشواى

بقلم
محمود طاهر حقى

المكتبة العربية

تصدرها

وزارة الثقافة والإرشاد القومى

بفروعها الثلاثة

المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية

المؤسسة المصرية العامة للأنباء والنشر والتوزيع والطباعة

المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر

لك الحق إذا قرأت هذه الرواية التى صدرت أول طبعة لها في شهر يوليو سنة ١٩٠٩ من حى السيدة زينب أن تسأل نفسك في شيء من التعجب والدهشة : لماذا يعاد طبعها سنة ١٩٦٣ باعتبار أنها من خزائن المكتبة العربية المندثرة التى ينبغى أن تبعث من جديد ليعرفها الجيل الحاضر ويدخلها في تاريخ نشأة الفن القصصى وتطوره في بلادنا ؟ ستؤخذ بأن الجانب القصصى المعتمد على الخيال في هذه الرواية جدّ ضئيل ، وأن جهد المؤلف يكاد لايتجاوز تسجيل قضية دنشواى كما حدثت .

لم يصطنع أشخاصه اصطناعاً . بل أخذهم بأسمائهم ومواطنهم ومهنهم من واقع الحياة ، فوصفه هو وصف الصحفى أو وصف المؤرخ على أحسن تقدير . إنه روى لنا بالترتيب — وبالتمام والكمال — كيف وقعت الواقعة في قرية دنشواى . ثم دخل بنا إلى قاعة المحكمة المخصوصة لنشهد الجلسة ونرى القضاةَ ونسمع شهادة الشهود ومرافعة النيابة والدّفاع . ثم صحبنا إلى ساحة التنفيذ لنحضر بشاعة أحط جريمة ارتكبها الاحتلال البريطانى في حق شعب مصر الأبىّ الوديع — ولك أن تقول : إننا نستطيع أن نجد مادة هذه الرواية بإحاطة أشد شمولاً وتفصيلاً — وبالصور الفوتوغرافية أيضاً — في العدد الممتاز « لمجلة المجلات العربية » التى كان

يصدرها المرحوم محمود حسيب في ذلك الوقت وجعله وقفاً على قضية دنشواى .

ولكن أرجو أن يزول عجبك — إذا لم يكن كله فأغلبه إذا علمت أن « عذراء دنشواى » هى أول رواية مصرية مؤلفة تباع منها آلاف مؤلفة من النسخ فور صدورها . أعيد طبعها عدة مرات في فترة وجيزة ، تلقفتها الأيدى ، دار حولها حديث الناس ، قرءوها باعتبارها رواية لاكتاباً في التاريخ — وهكذا تمثل في « عذراء دنشواى » أول غزو على نطاق واسع من فن القصة لجمهور القراء ، لم يعد مفهوم الفن القصصى غير متبين إلا لقلة ضئيلة من المثقفين ، بل جاوزهم إلى عامة القراء ، نفذت إليهم الرواية نفوذ الصحف اليومية ، ورأى فيها عامة القراء — ولاريب — أن الرواية فن حديث له أصوله ، وأنها وسيلة جميلة محببة للتعبير عن وجدان الفرد والشعب ، فتهز العواطف هزاً شديداً لاتقدر عليه المقامة ، أو القصيدة ، أو الخطبة أو المقال الصحفى ، وهى فنون الأدب التى كان يألفها الشعب في ذلك الوقت ، ورأوا الرواية تسمو على هذه الفنون جميعاً بقدرتها على إثارة الخيال والتحدث بصراحة عن الحب ، لم تعد المحبوبة تنادى بالتذكير كما في أغلب القصائد إمعاناً في تجهيلها ، لم تعد ليلى المبهمة التى ترمز تارة لحب الشاعر وتارة لحب الصوفي ، لم تعد دعد أو هند أو أميمة — مجرد أسماء تتخذ تكئة لبدء القصائد بالغزل — بل حدثتهم « عذراء دنشواى » عن حب ساذج برىء بين فتى وفتاة من أبناء الجيل هما : « محمد العبد » و « ست الدار » ، فبحكاية حبهما بدأت « عذراء دنشواى » .

« عذراء دنشواى » — في نظرى — هى التى هيأت أذهان عامة القراء لتقبل الفن القصصى ، هى التى أعدت المسرح الذى سيحول فيه هذا الفن حتى يبلغ رقيه الذى بلغه اليوم ، فالروايات التى بين أيدى عامة القراء في عهدها قليلة جداً ، وأغلبها مترجم يقصد به التسلية ، وبعضها مؤلف . ولكن لايتصل بوجدان الشعب ، فهى إما روايات تاريخية عن عهود مضت ، قصدها الإشادة بالأمجاد ، وإما روايات تهدف إلى الموعظة وتقام على سيل من الحكم والأمثال . فجاءت « عذراء دنشواى » تربط الرواية لأول مرة بوجدان الشعب في معاصرة واقعية ، وهذا هو المنبع الذى ينبثق منه الفن القصصى في مفهومه الحديث .

بل أمضى خطوة أخرى وأقول : إن « عذراء دنشواى » هى أول رواية مصرية تتحدث عن الفلاحين ، تصف حياتهم ومشاكلهم وتنقل لنا لغتهم كما ينطقونها بلهجتهم وأسلوبهم ودعابتهم فيدل كل هذا عليهم — والإطار هو مناظر الطبيعة في الريف — سماؤه وأشجاره ، ليله ونهاره ، حقوله وأجرانه ، زرائبه وأبراج حمامه ، إنها أول رواية تدخل الفلاح في نطاق الكرامة الإنسانية ، — بل تنظر إليه نظرة تمجيد ، ارتفع مجلس الفلاحين للسمر ونظر الشكاوى في « عذراء دنشواى » إلى مقام أعرق نوادى المثقفين في المدن الراقية ، بكل معانيه ، إذ أعضاؤه من طبقة واحدة وفكر واحد ، ويشتغلون بمهنة واحدة ، وللقرويين حرية في الفكر والمناقشة فللإبن أن يحاجّ أباه وللأخ أن يناقش أخاه وللمرأة حظ الاجتماع والمناقشة كالرجل سواء بسواء ، كما يتمنى سعادة صاحب « تحرير المرأة » ص ١٣ .

أفنقول : إنه من عجيب الصدف أن يظهر الفلاح لأول مرة في أول رواية تهز وجدان الشعب ؟ أم نقول : إن هذه الظاهرة ليست وليدة الصدفة وحدها . بل هى نتيجة منطقية محتومة للتلاقي بين مخاضين طويلين محجوبين في صمت باطنى: مخاض ولادة الرواية . ومخاض ولادة وحدة الشعب في المحنة . وعثوره على نفسه وحاجته إلى التعبير عن هذه النفس .

ولاتستهن بإقدام الرواية في سنة ١٩٠٩ على اتخاذ الفلاح — لأول مرة — موضوعاً لها . فقد كان الفلاح حينئذ من سقط المتاع . منفياً من اهتمامات أهل المدن . بل كانت النظرة إليه هى نظرة التحقير والازدراء . وماكان العهد بعيداً بكتاب « هز القحوف في شرح قصيدة أبى شادوف » الذى وصف الفلاح أشنع وصف وسبّه بأقبح الشتائم وجعله لا يفترق عن البهائم .

ومن فضائل « عذراء دنشواى » أن نظرتها للفلاح لم تكن نظرة التمجيد المحض . بل أدركت أن فن القصة ينبغى أن يقوم على النظرة الواقعية . لذلك قدمت لنا فلاحاً أنانياً هو « أحمد زايد » . يضع مصلحته الخاصة فوق كل اعتبار . ولو اقترف الخيانة وداس على الجثث في سبيل تحقيقها ، وكأنى بالمؤلف قد انتبه — وإن كان انتباهه غامضاً ومعالجته ساذجة — إلى أن الرواية تزكو بالمقابلة بين الخير والشرّ ، وباستعراض أنماط مختلفة من الطبائع .

وأكاد لا أعدو الحقيقة كثيراً إذا قلت : إن « عذراء دنشواى » هى البذرة التى مهدت — في نظرى — لمحمد

حسين هيكل أن يكتب في سنة ١٩١٢ رواية « زينب » ويجعل حوادثها تجرى في الريف وبعض أبطالها من الفلاحين ، وأن « عذراء دنشواى » تمسكت بأطراف أهداب الواقعية — على حين غرقت « زينب » في رومانسية شاعرية لاتقبل الأضداد .

إننى بطبعى أعرض عن المقابلة وليدة التقسيمات الجدولية إذا لم يتطلبها نفع ملزم ، وأخشى الحجج التى هى مجرد نتائج لتشقيق لكلام سابق ، شأن انشقاق الخلية الواحدة — فيمضى الكلام في فراغ جدلى — براق وله منطقه ولكن لاصلة له بالواقع أوبالنموّ المعقول للفكرة الأصيلة وما أشد سحر التقسيمات والمقابلات علينا وما أشد قدرة الألفاظ على خداعنا وإيالة خطانا ، أكره التعسف والافتعال وكل من يجهد نفسه دهراً ليعثر على إبرة صدئة في أردب غلة ليدل علينا بذكائه ومهارته وأنه أتى بما لم يأت به الأوائل والأواخر أيضاً . ومع ذلك لاأقوى هنا على مغالبة دافع خفى لحوح يزين إلىّ المضى في المقارنة بين « عذراء دنشواى » و« زينب » ، — لا أجزم بشىء ولكن يخيل إلىّ أن الروايتين تعالجان أيضاً — ولو بغير وعى — علاقة المثقف ربيب الريف بمجتمع الفلاحين من أهله وعشيرته وبلدياته . فبطل « زينب » مثال لهذا الشاب الريفى المثقف ، المنقسم فى نفسه بين نشأته وبين ما تلقى من علم حديث وآثار مقيتة في المدن ، يشعر — رغم حبه لهذا الريف وأهله — أنه غريب فيه وأنه مقصىّ عنهم ، بينه وبينهم حاجز لايدرى ماهو ولا كيف نشأ وقام ، له هو مشاكله وهمومه ، شتان بينها وبين مشاكلهم وهمومهم . إنه يكاد يصطنع لنفسه قانوناً أخلاقياً يحل عنده محل الدين ، يخشى المجاهرة به لأن أهله

سينكرونه أشد الإنكار ويتهمونه بالكفر والإلحاد ، وهو بالرغم من اصطناعه لهذا القانون الأخلاقي لايطمئن له لأنه يشعر بالانفرادوالعزلة ، وقديبلغ هذا الشعور حدّ الخوف والتمزق الروحى المؤدى إلى الانهيار ، فهو مع ذلك يهفو إلى الاندماج والوئام ، ولكنه عاجز عن تخطى هذا الحاجز العنيد الذى يفصله عنهم . لقد أخفق بطل « زينب » في العثور على هذا الاندماج والوئام لأنه عجز أولاً عن عثوره على الوئام مع نفسه . كنا نود أن نجد في رواية « زينب » مآل هذا البطل ونتيجة قيام الحواجز بينه وبين أهله ، ولكن « هيكل » لم يشف غليلنا وفضّل أن يجعل لسيرة البطل خاتمة فذة عجيبة ، أمره أن يذوب فجأة من بين أيدينا ، أن يختفى من الحياة ، تاه منا وضاع أثره وأصبحنا لاندرى من أمر مستقبله شيئاً ، بل لا نعرف أهو حىّ أم ميت ، هل أفلت الخيط من يد « هيكل » ؟ هل بدت له المهمة أشق مما يتحمل؟ أم أنه كان هو عاجزاً عن تصور المآل الذى يرتضيه دون أن يضع يده في عش الزنابير ؟ هل كان « هيكل » يريد أن يقول : إن هذا الوئام مستحيل . .

وفي رواية « عذراء دنشواى » يقوم الهلباوى بنفس الدور في صورة أخرى ، إنه أيضاً واحد من أهل الريف ، لمّا تعلم وتثقف وسكن المدن وخالط الكبراء انبتت الصلة بينه وبين أهله واستحال الوئام .

لست أريد أن أحكم هنا على الهلباوى من الوجهة الأخلاقية أو الوطنية ، فقد تولى التاريخ ذلك عنى ، لست أملك الليلة إلا أن أسأل له رحمة ربى وربه الذى يغفر الذنوب جميعاً ، لقد عمل الهلباوى بقية حياته على التكفير عن خطيئته فهو الذى دافع عن « الوردانى » ونفر عديد بعده

من المتهمين السياسيين ، ولكن الصورة التى ارتسمت له في أذهان الشعب منذ ذلك الحين إلى الليلة هى صورة ابن الريف الذى لم يصبح غير منفصل عنه فحسب ، بل أصبح أيضاً الجلاد الذى يسوق نفراً من عشيرته إلى المشنقة جزاء لهم كما يقول — على تخلفهم وجهلهم وقسوتهم وحماقتهم . بطل « زينب » سلبىّ ، بطل « عذراء دنشواى » إيجابىّ ، لا يقترف العقوق فحسب ، بل يقترف أبشع صور الخيانة . وقد لجأ « محمود طاهر حقى » إلى الخيال والاختراع ليصور الهوّة بين « الهلباوى » والفلاحين فجعله يطلب في المحكمة أن توتى له زجاجة كولونيا لتنجيه من رائحة المتهمين الفلاحين ، والعجيب أنى سمعت هذه الحادثة الخيالية تروى على أنها وقعت فعلاً ، وتطوع بعض الناس للتأكيد بأنهم شهدوها بأعينهم ، وفى هذا دليل على أن هذا الأمر كان معبراً أصدق تعبير في نظر الشعب عن مأساة « الهلباوى » وعن السخرية به .

الروايتان إذن تعكسان ظلال مشكلة واحدة ، مشكلة الوئام بين الريفى المثقف وأهله . ولاشك أنها كانت من المشاكل الموجعة التى تعتلج في ضمائر المثقفين في ذلك الحين من شدة خشيتهم من خطر الانعزال ، انعزالهم عن المجتمع وانعزال المجتمع أيضاً عنهم ، كان في نفوسهم تشوّف لمجتمع تندمج طبقاته بعضها في بعض ويسوده الوئام الروحى والعقلى . . هذه هى طلائع بحث الشعب عن نفسه ، هى التى مهدت لسنة ١٩١٩ وسنة ١٩٥٢ وسنة ١٩٦١ .

*

ينبغى الاعتراف بأن رواج رواية « عذراء دنشواى » وقت صدورها لم يكن مرجعه قيمتها الفنية ، بل ركوبها موجة من الشعور المتقد الذى بثته قضية « دنشواى » في نفوس المصريين . أحسّ كل واحد منهم أن قلبه قد أصيب بطعنة

خنجر هيهات أن يلتئم جرحه ، المآتم فى كل بيت ، لم تبق عين لم تترقرق فيها الدموع . وقد شهد لنا « قاسم أمين » أنه رأى قلب مصر يخفق مرتين : يوم تنفيذ حكم الإعدام في شهداء دنشواى ، ويوم وفاة اللواء مصطفى كامل ، بل قد التحقت في ضمير الشعب مأساة دنشواى بمأساة وفاة اللواء في عزّ شبابه ، لأنه هو الذى جاهد من أجل أن يوقظ ضمير العالم المتحضر إلى بشاعة جرم انجلترا . وأطاحت القضية بعرش كرومر وخرج من مصر يجرّ أذيال الخيبة والاندحار ، ولكن عقابه لم يشف لمصر غليلاً لأن كل ثأر كان أهون من الجرم .

وهذا الشعور المتقد في قلوب المصريين لم يجد كامل إسقاطه في وصف المحاكمة في الصحف لأنه لم يتناول إلا الوقائع ، ولا في المقالات الصحفية ، لأن اهتمامها وقف على الجانب السياسى وحده . وإنما وجده في رواية دنشواى لأنها عنيت « بالإنسان » أول كل شيء ، واستطاعت — بفضل غمرة الشعور المتقد . ورغم سذاجتها — أن تُحدث نوعاً من التجاوب الرّوحى بين القارئ وأطراف القضية ، أدنتهم إليه ، فرسمت له هيئتهم ووصفت طرق معيشتهم وكلامهم ، بل استعانت بالخيال للنفوذ إلى مجالات نفسية تستعصى على المقال الصحفى كما ترى في الفصل السادس من الرواية وعنوانه : « بين الهلباوى وضميره » .

أعترف أنني لاأدرى كيف سيتلقى رواية « عـذراء دنشواى » هذا الجيل الحاضر الذى لم يشهد ولم يعان مأساتها . أتمنى أن أعرف وقعها عليه . هل سيهتز لها رغم سذاجتها كما اهتززنا نحن أبناء الجيل المعاصر لها ؟ فيكون هذا دليلاً على أن الرواسب في ضمير الأمة تتوارث رغم مرور

الزمن وتَغيُّر الظروف وانقطاع الصلة . إنها تظل خرساء هامدة ولكن غير ميتة ، يجللها ضباب الماضى ، تدرك بالعلم والحدس الغريزى معاً ، والحدس أثبت من العلم . أم أن الجيل الحاضر سيجد نفسه غريباً عنها فلايهتز لها ، فنقول : إن ضمير الأمة كما هو قادر على حفظ الرواسب قادر أيضاً على هضمها ، وأن من الجديد ما يَجُبُّ كل قديم . وأيّاً كان من أمرها فإنى ألتمس من الجيل الحاضر ألا يحزن أمام سذاجتها ، وأن يتناولها بالإعزاز والتوقير كأنه يعثر على صندوق قديم خلفته جدته فلما فتحه شم عطرها ورأى فتات عالمها ، أحبّ له أن يعلم أنها كانت حدثاً هاماً في حياة أجداده وآبائه ، لاأذكر أننى بكيت في صباى كما بكيت وأنا أقرؤها ، ولعلنى أنا نفسى حين أقرؤها اليوم لا أذرف دمعة واحدة ، ومع ذلك أتوجع لشح عين كانت في يوم سخية .

*

وينبغى ألا نغفل أن « محمود طاهر حقى » لم يكن يملك — وهو يؤلف هذه الرواية — حرية القول كلها ، كان سيف الاحتلال مسلطاً على الرقاب ، شديد الإرهاب للناس . لقد طلبه « هارفي باشا » حكمدار البوليس لينذره مراراً ويحذره من غلو لهجته ، لأن الرواية كانت تنشر مسلسلة في صحيفة المنبر ، فلما جمعها في كتاب اضطر إلى كتابة مقدمة يلعب فيها على الحبل لئلا يقع فتدق عنقه . إقرأ هذه المقدمة بعناية لتعرف منها شدة حرجه ، ومع ذلك فقد استطاع ببراعة كيّسة أن يتملص من القيود ويعبر عن أكثر ما يريده في الرواية ذاتها ، بل في المقدمة الاعتذارية أيضاً . فلا تؤاخذه بتذلله أحياناً بين يدى الحكومة ، وبتجنيه

المصطنع أحياناً على بنى قومه ، وبمحاولته التوفيق أحياناً بين رأسين لا يجتمعان في حلال ! الوطن والاحتلال ، لقد أدرك الشعب حرجه ، وعرف أن انحرافه رياء كاذب غير منبعث من قلبه ، تجاوز عن كل هذه الصغائر المتوقعة ليلقى باله كله للمأساة في صميمها ، ولعله صفق للمؤلف لأنه عرف كيف يلعب على الحبل من أجل أن يعبر عما يجيش في نفسه .

*

لعلنى أسرفت في الإلحاح على وصف هذه الرواية بالسذاجة ، وقد تلتمس للمؤلف العذر إذا علمت أنه كتبها وهو في الحادية والعشرين من عمره وأنه اضطر بسبب مرضه بعد وفاة أبيه أن ينقطع عن التعليم وهو في أول مراحله ، ويحق لك أن تعجب له وتعجب به وأنت تراه رغم قلة بضاعته اللغوية والثقافية يكتب هذه الرواية بأسلوب فصيح خال من الأخطاء والبهرج والسجع ، وتدل « عذراء دنشواى » — ولاريب — على تملك مؤلفها لموهبة فطرية في فن القصة ، تفتحت فيما بعد كما ستتبين من قادم كلامى.

ولذلك فإننا — إذا تركنا التزمت — نستطيع أن نجد في هذه الرواية رغم سذاجتها بوادر إحساس غريزى بمقومات الفن القصصى في مفهومه الحديث ، وبتنوع أساليب المعالجة ، بالتنقل بين الوصف والحوار والمونولوج ، بل إنها أدركت في ذلك العهد البعيد بعض المشاكل التى يواجهها هذا الفن عندنا إلى اليوم ، فاضطرت إلى اتخاذ موقف محدد منها ، ينم عن الجرأة واستقلال الرأى وصدق الحكم . ولعل « عذراء دنشواى » هى أول رواية مصرية تنبهت لمشكلة كتابة الحوار بين العامة بأى لغة تكون ، أبا لفصحى أم

بالعامية ؟ لقد انحاز المؤلف إلى الفصحى في كتابة السرد ، أما في كتابة حوار العامة فقد مال إلى كتابته بالعامية . وهذا هو الرأى الذى أخذ به كثير من أدبائنا اليوم ورضى أنصار الفصحى أنفسهم بالسكوت عنه دون مهاجمته بسبب إرهاب مطلب الصدق في العمل الفنى كما يقال ، ونعلم من مقدمة « عذراء دنشواى » أن كتابة الحوار بالعامية لم يسلم من النقد ، فدافع المؤلف عن نفسه بقوله . إنه تعمد الكتابة باللغة العامية الريفية لتكون أوقع في النفس وعبارة (طبق الأصل) لمحادثة سكان القرى . ومع أن محمود طاهر حقى فتح باب كتابة الحوار بالعامية فإن محمد حسين هيكل تهيب من بعده دخوله ، طلباً للسلامة فيما يبدو . لايستطيع مؤرخ الفن القصصى عندنا حين يتعرض لمشكلة كتابة الحوار أن يغفل « عذراء دنشواى » ولا دلالتها وجرأتها وتفهمها لمطالب الفن القصصى في مفهومه الحديث .

وكذلك تجد في « عذراء دنشواى » مثلا مبكراً لحسن استخدام « المونولوج » كما ورد في الفصل السادس منها ، ولعله من أجمل فصول الرواية .

وأحب أيضاً أن أقف عند إقدام المؤلف عند نقله لحديث الإنجليز على كتابة بعض ألفاظهم بالأحرف العربية مثل « نو » و« أوف كورس » فإن هذا المسلك امتد فيما بعد وظهرت آثاره في المسرح الهزلى عندنا ، كما ظهرت في « المونولوجات » والأغانى الخفيفة .

*

في أوائل القرن التاسع عشر قدم إلى مصر من مسلمى بلاد المورة في اليونان شاب اسمه إبراهيم حقى ، وكانت خالته الست حفيظة خازندارة قصور إسماعيل ، فتمكنت

من تعيين قريبها الوافد في خدمة الحكومة ، فاشتغل زمناً في دمياط ثم تدرج في الوظائف حتى أصبح مديراً لمصلحة في بندر المحمودية بالبحيرة وظل أهل هذا البندر زمناً طويلاً يذكرون – بعد وفاته – صلاحه وتقواه وحسن خطه . وقد رزق بثلاثة أبناء أوسطهم هو محمود طاهر حقى الذى ولد سنة ١٨٨٤ بدمياط ولم يشأ له الحظ أن يتم تعليمه في المدارس إذ أصيب بمرض شديد بعد وفاة أبيه سنة ١٨٩٠ ولكنه شب بعد ذلك فتى قوى الجسم له طاقة جبارة على تحمل التعب وإقبال على متع الحياة لايكل ولايمل . أتركه الآن يروى لك ترجمة حياته كما كتبها لى بنفسه قال :

« بدأت أعالج كتابة القصة القصيرة وأنا عمرى ١٧ سنة تقريباً وأول قصة ظهرت لى كانت في جريدة أسبوعية مصورة يصدرها خليل زينية ، ثم في مجلة الجوائب المصرية لخليل مطران . وفي سنة ١٩٠٦ ألفت رواية « عذراء دنشواى » بعد حادث دنشواى مباشرة وكانت تنشر في جريدة المنبر لصاحبيها محمد مسعود وحافظ عوض. وكتبت قصة طويلة اسمها « الفضيلة » ثم قصة أخرى طويلة اسمها « غادة حمانا » . ونشرت في أغلب الصحف قصصاً قصيرة أذيع منها الكثير بالراديو . وكنت أكتب في الاهرام يومياً بضعة سطور تحت عنوان « همسة في الأذن » وفي صحيفة الاتحاد كلمة يومية تحت عنوان « على الهامش » وعالجت المسرحيات فكتبت مسرحية « النزوات » التى مثلتها فرقة يوسف وهبى ، ومسرحية « الجامحة » التى مثلتها فرقة السيدة فاطمة رشدى ، ومسرحية « بناتنا » التى مثلتها الفرقة القومية المصرية – وأنشأت أيضاً في شبابى صحيفة « باسم الجريدة الأسبوعية » وكان يكتب فيها المرحوم أحمد شوقي أمير الشعراء بأسماء مستعارة .

وربما كنت أكثر من شغل وظيفة السكرتير في مختلف الجهات – فالصلة التى كانت تربطنا بالمرحوم عبد الحليم باشا عاصم مدير ديوان الأوقاف عينني سكرتيراً له بأربعة جنيهات ، ثم استقلت عندما ألفت رواية « عذراء دنشواى » بسبب استياء الحكومة منى ، ثم عدت إلى ديوان الأوقاف سكرتيراً لمديره مصطفى باشا ماهر ، ثم انتقلت لوزارة الداخلية سكرتيراً لبدر الدين باشا مدير الأمن العام ، ثم استقلت لأشتغل سكرتيراً لجريدة السياسة ، ثم استقلت واختارنى الأمير عزيز حسن سكرتيراً له ، ثم استقلت عندما اختارنى المرحوم يحيى باشا إبراهيم سكرتيراً لحزب الاتحاد ، ثم استقلت لأشغل وظيفة السكرتير العام للفرقة القومية المصرية .

والذى حفزنى إلى تأليف مسرحية « بناتنا » باللغة الفصحى أن الأستاذ « توفيق الحكيم » ألف مسرحية « رصاصة في القلب » باللغة العامية فعاتبته فأكد لى أنه لايمكن تأليف كوميديا باللغة الفصحى ولذلك تحديته على صفحات الأهرام وألفت المسرحية – وعارض « خليل مطران » مدير الفرقة تمثيل المسرحية رغم أن الدكتور طه حسين ومصطفى باشا عبد الرازق وأحمد بك أمين أجازوا تمثيلها ، وبعد إلحاح منهم قبل « خليل مطران » تمثيلها على شرط أن أقدم استقالتى في حالة سقوطها فقدمت له استقالتى فوراً وانتظرته كالعادة في ليلة الافتتاح فلم يحضر وعلمت أنه هرب للإسكندرية ومكث بها أربعة أيام حتى اطمأن وعاد وسلمنى خطاب استقالتى وضاعف لى أجر المسرحية ؟ . (انتهى كلامه) .

نسى محمود طاهر حقى أن يذكر إصداره لمجموعتين من القصص القصيرة : الأولى باسم : « الغاديات الرائحات »

سنة ١٩٤٨ والثانية باسم « البسما الساخرة » سنة ١٩٥١ « بسلسلة كتب للجميع » .

ولامفر لنا بعد استعراض هذا الإنتاج الغزير من أن نسأل : لماذا وقف النقد الأدبي عندنا منه موقف التجاهل ؟ لماذا لا يذكر اسم «محمود طاهر حقى» في الكتب التى تؤرخ عندنا لفن القصة والرواية والمسرحية ؟ سؤال محير لا أجد له جواباً . لاتعليل عندى سوى أن النقد ربّ صُدف ونزوات لامنطق لها . إننى على علم بروائع بديعة في إنتاجنا القصصى الحديث لم يتعرض لها النقد بكلمة واحدة . كم أتمنى أن تتاح لى فرصة التحدث عنها — وعن درب محمود طاهر حقى في جملته . فليس مجاله هنا في هذه المقدمة التى أكتبها لروايته « عذراء دنشواى » وهى من بواكير إنتاجه فلايضار الكلام عنها بإغفال ذكر مالحقها من أعمال .

وقد رأيت من ترجمة حياة محمود طاهر حقى التى كتبها بنفسه أنه كان منذ شبابه على صلة بحاشية الخديوى عباس حلمى . وسافر معه إلى تركيا وأوروبا مراراً . فغرق في أذنيه من وراء ستار في المعترك السياسى بدسائسه وأنماطه العجيبة . وعرف عن قرب أغلب رجال الأحزاب والصحافة والمسرح في مصر . وكتب له حسن حظه أيضاً أن يخالط اثنين من كبار شعرائنا . هما : أحمد شوقي وخليل مطران ، فتوثقت بينهما وبينه صداقة وطيدة — هل يطمع مؤلف قصصى في أن تتاح له حياة أغنى من هذه الحياة الزاخرة بالتجارب وتنوع الأوساط والأنماط ؟ معاناة الحياة عوضته قصور تعليمه المدرسى .

دخلت عليه مراراً وهو يؤلف إحدى مسرحياته ، فأجده قد أفرغ لها كل همه وجهده ، متوتر الأعصاب ، يذرع

الحجرة جيئة وذهاباً الساعات الطوال من أجل البحث عن كلمة . . إنه يتلو جهراً ما يكتبه ليتبين وقعه في الأذن . .

هو الآن راقد على فراش المرض بعد جراحة بليغة أجريت له رغم شيخوخته . وكما كنت أراه في شبابه يقابل الحياة — حلوها ومرها — بثغر بسام وهمة لاتتضعضع . أراه اليوم لايتخلى عن هذه الابتسامة وهذا التجلد . شهدته يرفل في نعمة موفورة ثم يمر بأزمة عارضة فإذا هو هو لا يتغير . لا يبطره غنى ولا يكويه ضيق . لم أر رجلاً مثله عشقته الحياة لأنه عشقها . .

ولولا أننى ابن أخيه الشقيق الأكبر لزدت القول عنه تفصيلا . .

مقدمة

اللهم باسمك القاهر الرحيم . أفتتح كتابى وأسألك العفو والعافية في الدُنيا والآخرة . وأن تعصمنى من زلة القلم لئلا تودى بى إلى عثرة القدم.

وبعد : فالكل يعلم ما هى مسألة دنشواى المشئومة ، وما جرت على البلاد والعباد من المصائب والبلايا ، وماذا كانت نتيجتها السيئة على المصريين أجمعين .

ويقينى أن المسألة كلها بنيت على أساس سوء التفاهم الذى جعل للموضوع شكلا وأهمية ، زيادة على شكله وأهميته الحقيقيتين اللتين لبستهما . وكانت العاقبة المادية قصاص ما يربو على العشرين شخصاً بين معدم ومجلود وسجين وطريد ، وكانت العاقبة الأدبية تلك التهم الشنيعة التى ألصقت بنا ظلماً وبهتاناً والتى نسبها إلينا في تصريحه المشهور أكبر ممثل لحكومة جلالة إدوارد السابع .

فالحادثة بشكلها ، والأقوال باختلافها ، والمحكمة المخصوصة بصبغتها ، والعقاب بقسوته ، والتنفيذ بفظاعته ، كل ذلك حرك في نفسى وضع رواية تكون تاريخاً لهذه الحادثة السيئة وتكملة لما نقص من فظائع ديوان التفتيش أو أحكام نيرون .

وأظن أن القارئ أدرك — لأول وهلة — صعوبة الكتابة في هذا الموضوع بالشكل الذى كتبت به روايتى (عذراء دنشواى) وذلك لأسباب كثيرة : أولها وأهمها أن الأقوال ما زالت للآن مختلفة في كل شىء ، في الحادثة وكيفيتها ، والتحقيق وأسلوبه ، والعقاب وتوقيعه ، وأقول الحق : إن هذا السبب قد شوش على فكرى ، وكاد يكون عثرة في سبيل مشروعى . إلا أننى تغلبت على ذلك ، ورأيت أن الاعتماد على أقوال الحكومة خير منفذ لى من هذا المضيق الوعر فاتخذتها لى نبراساً وأنا غير راض عن نفسى .

وثانى الأسباب : أن الموضوع محفوف بالمخاطر ، فقد تكون كلمة في غير موضعها تجنى على نفسى ما أنا غنى عنه فعمدت إلى التلطف ما أمكننى ، والتقهقر إلى خط الرجعة (دائما) ما وسعنى ، حتى لا أصير في صف الآثمين ، ولا أكون آخر المنكوبين ، أو تكملة لمعاقبى دنشواى .

وثالثاً : أن الموضوع ضيق المنافذ فلا يسع إلا النسيم العليل يدخل إليه بسكون . فرأيت أنى لو أدخلت فيها شيئاً من الغرام وقليلا من الفكاهات فلربما أرضيت القارىء الكريم . فاستعنت بالله فأعاننى ، وتوكلت عليه وكتبتها ثم قدمتها إلى إدارة جريدة (المنبر) الغراء فتقبلها صاحباها صديقاى العزيزان — قبولا حسناً ، وأوسعا لها بين أعمدة صحيفتهما مكاناً فسيحاً .

فالرواية خيالية أكثر من أن تكون حقيقية ، والموضوع نفسه ألزمنى التوسع في الكتابة ، فابتكرت المحادثات المذكورة فيها ، والغرام الذى جعلته أساساً لها . وإنى أبرأ إلى الله من أن أخدع نفسى والقارىء وأتجاسر بالقول : إن المحادثات المذكورة حقيقية . وأظن أن ذلك مافطن إليه القارىء اللبيب من قبل هذا التصريح .

ولدى ظهور أول جزء منها على صفحات « المنبر » أخذ العجب جماعة ممن يحسنون الظن بالناس ، فدفعهم ذلك إلى تشجيع هذا الضعيف . وما أنا ممن يرتضى لنفسه التقريظ والإطراء لولا ثقتى بحسن نواياهم وشرف مقاصدهم . ولقد كان من بينهم من تفضل فانتقد لغة الرواية لأنه مضيع — على زعمه — للغة (القرآن الشريف) وغاب عن حضراتهم أنى تعمدت الكتابة باللغة (العامية الريفية) لتكون أوقع في النفس ، وعبارة (طبق الأصل) لمحادثة سكان القرى .

———

كتبت الرواية في (المنبر) المتصل إن شاء الله بالجوزاء ، وليس في نيتى أن أجمعها فيما يخلدها ، ولكن إلحاح أصدقائى على في طبعها على حدة لتكون أسهل في التناول ، وأقصر للمطالعة ، أرغمنى على قبول حسن ظنهم بالشكر الجزيل ؛ فلبيت طلبهم شاكراً فضلهم مثنيا على همتهم .

ومن جهة أخرى ، رأيت أن قصدى من تأليف هذه الرواية كان العظة البالغة والتذكار المؤلم لهذه الحادثة ، فشجعنى طلبهم وطبعتها لتكون محفوظة في المكاتب يتناولها الابن عن الأب ، وتحدث بها الأم ابنتها . وفي الحقيقة تكون قصاصاً ممثلا أمام نظر الإنسان في كل وقت وزمان تفكرنا دائما بمركزنا الذى نحن فيه ، وتكون أكبر رادع لنا وعبرة بالغة لأولادنا ، فلا يقدمون على أمر يبكون من نتائج عقابه الفظيع .

ولقد خدمت — في الحقيقة — القابضين على أزمة أحكام البلاد بيد من حديد ، فنقشت عقابهم الصارم على صفحات القرطاس ودونته في بطون التاريخ حتى يغنى عن كل عقوبة قد يجنها (١) ضمير المستقبل .

---

(١) يجنها : يخفيها

وقدمت أيضاً خدمة لأبناء بلادى فمثلت لهم شدة أحكام الحكام وقساوتهم في التنفيذ حتى لايقوم غر جاهل يجنى على البلاد بمثل ما جنت أهالى دنشواى .

وجرم جره سفهاء قوم

فحل بغير جانيه العقاب ...

ط . حقى

السيده زينب في ١٥ يوليو سنة ١٩٠٦

عذرای دشتوای

الفصل الأول

نسمات الأصيل

ألقت الشمس بسكون أشعتها الذهبية فى أصيل يوم يونيه سنة ١٩٠٦ على (قفة) دقيق كانت فوق رأس فتاة تناهز العشرين من عمرها ، طويلة القامة ، ممتلئة الجسم ، مفتولة الساعدين مقرونة الحاجبين ، يميل لون بشرتها إلى الصفرة أكثر منها إلى السمرة . وكان فى أسفل شفتها السفلى شجرة صغيرة مرسومة بالوشم الأخضر مما زادها جمالا ! ولقد راعت الشمس عواطف القرويين . وهى أمهم التى يقدرون مقامها ويكادون يعبدونها لأنها سر حياتهم وسبب من أكبر أسباب معاشهم . فأبت أم الكون أن تفارق سماء (دنشواى) بدون أن تودع وتحيي أرق وأطهر فتاة تحتها ، فعمدت إلى أشعتها فألقتها على وجه العذراء فى سيرها كما يلقى المحب يده على وجنة محبوبته فى مداعبتها !

وبعد غروب الشمس تماماً ظهرت سماء الغرب بلون العاشق المفارق ، فجلست الفتاة بردائها الأسود القذر وبقلبها

الأبيض النقى على أكمة من التراب ، بعد أن وضعت قفتها بجانبها ، وصارت تلعب بيديها فى قليل من الحصى وبعض (كوالح الذرة) . . وكان منظر جلوسها وهيئتها وسكونها يدل على أنها فى انتظار إنسان . وبعد لحظة رأت عن بعد شبحاً يقوم ويقعد ، فلما تأملته جيداً افتر ثغرها عن لؤلؤ منظوم تمنت ابنة الذوات أن تكون هى المتحلية به ثم قالت :

آه .. هو هو محمد العبد بيصلى المغرب .

ولم يخب ظنها ، فإن الشبح تقدم بعد هنيهة منها حتى ظهر لها تماماً أنه محمد العبد بعينه . وكان شاباً طويل القامة ، قوى البنية ، نحيف الجسم ، أسمر اللون يناهز السابعة عشرة من عمره خفيف الروح رغماً عن جحاظة عينيه !

ولما صار منها مثل قيد الرمح خفق فوًا دها بشدة وأسبلت جفونها حياء . أما الشاب فقال لها :

— ازيك يا ست الدار ؟

— الله يسلمك يا محمد .

— فين مدلله ؟

— رجعت قبلى من البابور .

— كنت ناوى آجى البابور بعد صلاة المغرب .

— ياسلام يامحمد ! يخلصك قعادى بعد المغرب في البابور؟

— ليـــه ؟

— انت موش عارف إيه اللى بيحصل هناك من الحاجات المسخرة بين النسوان والطحان ؟ وزيادة على كده جه أحمد زايد وقعد يناكف فينا طول النهار.

— أحمد زايد كلمك ؟

— لأ . ولكن كان بيحدف على الكلام وقال لست أبوها انه رايح يتجوزنى غصب عن أبويه وعنك !

— ازاى رايح يتجوزك وأنا مكتوب كتابى عليك !

— شوف بقه !

— طيب وانت ما قلتيش حاجه ؟

— لأ .

— قومى بقى يا اختى روحى أحسن يتمسى عليك الوقت

— حاضر .

ثم قامت وأخذت القفة بين يديها فساعدها خطيبها على وضعها فوق رأسها ثم قالت له :

— اتمسه بالخير يا محمد .

— يسعد مساك يا ست الدار .

وبعد هذه المحادثة سارت الفتاة إلى بيتها فرأت محمداً عبد النبى وزوجته يضعان النورج فوق الجرن فسلمت عليهما فردا عليها السلام وقال لها محمد عبد النبى إن أباها حسن على محفوظ ذهب إلى بابور الطحين للبحث عنها ، فتركتهما ودخلت بيتها تمنى النفس بقرب اجتماع شملها بخطيبها وحبيبها .

الفصل الثانى

الحديث ذو شجون

من عادة القرويين أن يقضوا شطراً من ساعات لياليهم في المسامرة مع بعضهم . وفى تلك البرهة يتباحثون فى المسائل الزراعية ويتناقشون فى الموضوعات التى تعنيهم . وفى بعض الأحيان يتسلون بقصص عنترة وأبى زيد الهلالى ويتفكهون بنكات (عم) أبى نواس و (الحاج) جحا . وإن كان لأحدهم ظلامة أو شكاية رفعها إلى هذا المجلس فيصلحون ما بينهم ، وإذا تعذر عليهم الحل رفعوها إلى العمدة . إلى غير ذلك مما يسمح لنا القارئ بأن نسمى مجلسهم (بالنادى) بكل معانيه ، إذ أعضاؤه من طبقة واحدة ، ومن فكر واحد ، وفى بلدة واحدة ويشتغلون بمهنة واحدة . وللقرويين حرية فى الفكر والمناقشة ، فللابن أن يحاج أباه ، وللأخ أن يناقش أخاه ، وليس بعيب إذا جادل الولد الشيخ . وللمرأة حظ الاجتماع والمناقشة كالرجل سواء بسواء كما يتمنى سعادة صاحب (تحرير المرأة) ويود !

فعلى هذه العادة المحمودة اجتمع أهالى دنشواى فى ليلة ٧ يونيه تحت أشعة القمر الفضية بجانب جرن هناك لمحمد زهران ، وأخذوا يتحدثون فى أمور شتى . وكان بين المجتمعين حسن على محفوظ وابنته موضوع روايتنا ست الدار ، وخطيبها محمد العبد ، وأخته مدلله ، ومحمد زهران صاحب الجرن ، وامرأته مباركة بنت حسن ، ومحمد أحمد السيسى ، وسليمان الفرماوى ، والسيد العوفى ، ومحمد على سمك ، وأحمد زايد ، وغيرهم . وبعد حديث طويل قال محمد أحمد السيسى :

— انت يا حسن يامحفوظ حوش الحمام بتاعك عن أجران الناس .

— ليه يا ابنى ؟

— أحسن بينزل يلقط الحب .

— يعنى ما فيش حمام فى البلد غير حمامى بينزل على جرنك ؟

— موش شغلى .

— طيب واشمعنى بتقول لى وما بتقولش لمحمد زهران اللى حمامه جنب جرنك ؟

— أنا بقول لك وباسمع غيرك .

فشد محمد زهران من لفافة تبغه نفَساً ثم رماها بقوة وقال بعد أن تنهد :

— هو محمد زهران بقى عنده حمام من السنة اللى فاتت ؟ مصطادوه الإنجليز كله .

فقالت مدللة : من حق يا عم زهران عملت إيه مع العمدة محمد الشادلى على شان الحمام ؟

— ولا حاجة يا بنتى . أنا لما رحت عند محمد الشادلى وقلت له انى رايح أروح مصر ، واشتكى عند باشة الإنجليز عمل الخواجات في الحمام وتخريب الأبراج قال لى إنه رايح هو يشتكى للمديرية . . وحلف لى بمقام السيد البدوى انه يجيب لى منهم تعويض .

— وبعدين ؟

— وبعدين راحت نومه .

فقال محمد على سمك : أهو طبع الشادلى كده ما يسألش فى أهل بلده .

فقالت مباركة : يا ترى رايحين ييجو السنادى ؟

فسكت الجميع لهذه الجملة لأنها نزلت عليهم نزول الصاعقة . وبعد سكوت طويل قال زهران :

— اللى عنده حمام يخاف عليه !

فقال محمد العبد : وان جم رايحين نعمل لهم ايه ؟

فقال حسن محفوظ : نعمل إيه يامحمد ؟ نفوض أمرنا لله .

— ليه ما نحوشوهمش ؟

— وحد يقدر يحوشهم وهم لهم البر والساحل ؟

— خليهم يموتوا حتى فينا فالأمر لله

— يعنى ما نقدرش نقدم بلاغ من دلوقتى ؟

— نقدم لمين ؟ ومين يقدر يقول لهم تلت التلاته كام ؟

فقال أحمد زايد : أهو نسيبوهم زى كل سنة يعرفم شغلهم.
فانتبه حسن محفوظ لصوت المتكلم وقال :

— يعنى يا احمد يا زايد كنت في وابور الطحين بتعمل ايه النهارده .

— وانت شغلك ايه يا عم محفوظ انت مالكش كلام عندى .

— شغلى ايه ازاى ؟ بلاش مسخره واوعه تانى مره تخطى البابور أحسن أكسر رجلك

— الله يسامحك يا عم محفوظ .

فقال زهران : إيه اللى حصل يا عم محفوظ ؟

— حصل ايه ؟ فيه كام واد هنا مالهمش شغله غير البابور ، يروحم يهارشو البنات ويعملو مسخره .

فقال زايد : مين قال لك كده يا عم محفوظ ؟ موش بنتك ست الدار ؟

— أيوه هى اللى قالت لى .

— بنتك تهمانى بالزور.

— طيب ومتختشيش تقول انك رايح تتجوزها غصب عنى وعنها ؟

— وحياة ربنا والسيد البدوى انه كدب .

فقالت ست الدار : يا باى ! يا باى !

ثم التفتت إلى مدلله وقالت :

— وحياة أخوكى وشبابك وإلا تفقدى عينيكى هو موش قال كده ؟

فقالت مدلله : إيوه يا عم محفوظ إيوه يا عم محفوظ بالحق قال كده قدام كل اللى كانوا هناك .

فقال محفوظ : بقا ايه .

ثم التفت وقال لزايد :

— إذا كان البنت مكتوب كتابها على محمد العبد ازاى رايح تتجوزها ؟

— طيب ومحمد العبد أحسن منى في ايه حتى تجوزهاله ؟

— أهو اللى كان كان ودى قسمة .

فعض أحمد زايد بأسنانه على شفتيه الغليظتين ، ونظر إلى العبد نظرة وعيد وتهديد .

وبعد هذه المناقشة قام كل إلى بيته .

الفصل الثالث

بين الحمام والحمام

– أف كورس ! يمكننا أن نلهو بالصيد في الحقول خصوصاً صيد الحمام مما يقصر علينا مشقة السفر.

– ول ! ولكن هل صيد الحمام مباح ؟

– نعم لأنه برى وسبق أن صدته هناك .

جرت هذه المحادثة بين رجلين من أبناء التاميز جالسين في ردهة من ردهات فندق (شبرد) الفخيمة متحليين بالملابس السوداء الرسمية الملكية ، وكان في يد كل منهما كأس (وسكى بالصودا !. . .)

قال الأول – واسمه الميجر بن كوفين – بعد أن حسا بقية كأسه : إنى أؤكد لك كل سرور في هذه الرحلة الجميلة . فأجابه الثانى – وكان اسمه اللفتننت سميث ويك – ألا يلزم أن نأخذ تصريحاً من الجنرال ؟

— كلا . لا لزوم للتصريح وغيره ، لأننا سنجد هناك مساعدات فوق العادة ، وإكراماً من الأعيان كبيراً !

— يظهر أن المصريين يحبون الإنجليز ؟

— المصريون يخافون من الإنجليز خوف الجبان من بأس الشجاع . ولم أر في حياتى شعباً متملقاً كهذا الشعب الغريب الأخلاق .

— يقال إنهم لينو العريكة وديعو الأخلاق .

— إن ما تسميه لينا ووداعة هما في الحقيقة ضعف وجبن ، ولذلك فإننا لانحترم هذا الشعب المتملق أبداً ولانحفل بآرائه المتطرفة !

— إذن الحال هنا كما في الهند ؟

— وكما في كل الشرق ! ! . .

فضحك اللفتننت وقال : أظنك تستثنى اليابان من هذه الأوصاف اللطيفة ؟ ؟

— وهل عندك شك في إجلالى لقدر هذا الشعب الحى الباسل ؟ !

وعند آخر هذه الجملة قاما وركبا عربة سارت بهما إلى حيث لاندرى !

* * *

أشرقت شمس يوم ١٣ يونيه المشئوم ، فألقت أشعتها الذهبية الجميلة على خيام متفرقة هنا وهناك عسكرت فيها فصيلة الدراجون «Dragon» من جيش الاحتلال . فأنفذت أشعتها إليهم لتحيي أبناءها البررة الذين بذلوا النفس والنفيس

حتى لا تغيب عن بلادهم . فنادى الميجر بن كوفن عبد العال صقر (المترجم) وأمره بأن يخبر الأونباشى أحمد حسن زقزوق بأنهم سيذهبون للصيد عند ناحية دنشواى في الساعة الأولى . فرفع المترجم يده اليمنى ووضعها لحظة بجانب جبهته ، وبهذه الحركة أدى التحية العسكرية وخرج . وكان الميجر جالساً على كرسى هزاز أمام مائدة ، وكان بالقرب منه شاب جميل الطلعة بهى المنظر ، اسمه المستر بورتريحادث شاباً آخر ، يشابهه في الهيئة والقوام ، اسمه اللفتننت سميث ويك . وكان بعيداً عنهم رجل يناهز الثلاثين من عمره ، ويظهر على ملامحه الضعف ، ومن عينيه تلوح البساطة اسمه الكبتن بول ، وكان هذا الكابتن ينظف بندقية صيد . وفي أثناء عمله كان يصفر بشفتيه أنشودة غرام . وكان بالقرب من الكبتن بول رجل قصير القامة جالساً فوق كرسى ، وواضعاً رجله على كرسى آخر ، وهو يقرأ في كتاب باهتمام كبير واسمه الكبتن بوستك . وبالقرب منه جلس رجل قصير اسمه اللفتننت هارجر يفس ساكناً .

وكانوا جالسين تحت خيمة جميلة ، وبعد أن خرج المترجم التفت الميجر إلى الكبتن بول وقال له .

— ألم تنته للآن من عملك ياكبتن ؟

— نـو .

— كان يمكنك أن تكلف جندياً بأداء هذه المهمة التى أشغلتك عن محادثتنا .

— أجد في عملى هذا أكبر لذة يا قومندانى العزيز .

— وأنت يابوستك ..أتجد في روايتك لذة بول في تنظيف بندقيته ؟

— كلا يا قومندانى الصغير فلا لذة أكبر من محادثتكم .

ثم طوى الكتاب واعتدل أمامهم .

فقال اللفتننت : وهل في الجهة التى سنذهب إليها حمام كثير ؟ وهل سيكون معنا هارجريفس ؟

فقال الميجر : نعم يوجد حمام كثير .أما هارجريفس فسيحرم من هذه الفسحة الجميلة ليكون هنا في المعسكر .

— وكيف يكون ذهابنا يا سيدى الميجر ؟

— هذا من اختصاص الحكومة المصرية ، وليس من شأنى أن أفكر في ذلك !وسترى الآن الاستعداد الهائل والولائم الفاخرة التى تقام لنا كما رأيت قبل اليوم !

فقال الكبتن بول : سنرى . .

وقضى هؤلاء الضباط وقتهم إلى الساعة الأولى بعد ظهر ذلك اليوم في محادثة ولعب ورق وغير ذلك مما يقطع الوقت .

وفي الساعة الأولى تماماً نادى الميجر عبد العال (المترجم) وقال له : هل قلت للأومباشى ؟

— نعم يا سيدى . وقال لى إنه أخبر ملاحظ بوليس نقطة الشهداء بذلك فأمره بأن يذهب معكم ويترك العسكرى هنا ويحضر لنا ركائب من عند كبير من كبراء الأعيان اسمه عبد المجيد بك سلطان .

فقال الميجر : ولكن هذا لا يكفى ، فقل للأومباشى أن يذهب فيسبقنا هو ويخبر العمدة بمجيئنا .

فوضع عبد العال يده على جبهته وخرج .

وبعد ربع ساعة ناداه ثانية وقال : ألم تحضر العربات للآن ؟

— لا ياسيدى .

— إذن فاستعد . لأننا نسير على الأقدام حتى نقابلها .

فأدى (المترجم) حركة السلام وخرج وهو يلعن الساعة التى جاء فيها دليلا لهؤلاء الجن الذين يريدون السير على الأقدام في ذلك الحر الشديد .

وبينما كان عبد العال في أشد همومه إذ رأى فجأة الضباط واقفين أمامه وسمع صوتاً جهورياً يصرخ (أبدا لآ ل) فجرى المسكين حتى وقف أمام الميجر الذى كان يناديه ، وأدى السلام (العسكرى) فقال له الميجر : هيا بنا وأمسك هذا الحصان ...

فسار الخمسة ضباط يتكلمون ويضحكون ويمنون النفس بأكلة حمام لذيذة وشرب قزازة وسكى بالصودا . . . معها ، بعد رجوعهم من تلك الرياضة البدنية ! . أما صديقنا عبد العال فقد كان سائراً خلفهم على مهل يلعن هذا المزاج الإنجليزى الذى يخرج للعب والصيد في حر شمس يكاد يقتل الجمل .

وبعد مسير برهة لاح لهم خيال أسود فتنفس (الدليل) الصعداء ، وحمد الله وشكره لأنه تأكد بأن هذا الخيال هو خيال العربات ، وحقيقة فإن ما ظهر لهم كانت العربات

ثم سار الشيخ في طريقه حتى صادف ابنته ست الدار فقال لها : فين محمد العبد ؟

— في الغيط .

— طيب وانت واقفة هنا ليه ؟

— جيت أشوف مين دول .

— واحنا ما لنا يا بنتى . احنا مسلمين أمرنا لله !روحى روحى يا ست الدار في البيت .

— وانت رايح فين يا ابويه ؟

— أنا يا بنتى رايح الغيط .

— ابقه اجيب لك الغدا هناك ؟

— أيوه يا بنتى في صلاة العصر هاتيه لى هناك .

— طيب والإنجليز دول رايحين يعملم زى كل سنة ؟

— واحنا ملنا يا ست الدار . اللى يعجبهم يعملوه .

— طيب ما تقول لهم انهم ما يصطادوش هنا .

— اخرصى يا بنت الكلب . عاوزة تودينى في داهية ؟ دول لو سلموا على أنا ماردش عليهم السلام لحسن يتهمونى بأنى اشتمهم وبعدين أروح في نايبه .

وبعد هذه المحادثة القصيرة سار حسن محفوظ إلى غيطه وسارت ست الدار إلى بيتها .

وفي أثناء هذه المحادثة كان عبدالعال سائراً مع الضباط حتى ابتعدوا عن البلدة قليلا . فقال القومندان : لننقسم فرقتين . فاذهب يا مستر بورتر مع اللفتننت سميث جهة الشمال . وأنا سأكون مع الكبتن بول والكبتن بوستك هنا .

التى طلبها الأومباشى . وبعد هنيهة ركب الميجر بن كوفين وعن يساره الكبتن بوستك في عربة ، وركب في أخرى الكبتن بول ، وعن يمينه المستر بورتر . أما اللفتننت سميث ويك فامتطى جواده وسار بجانب العربة الأولى .

* * *

وبعد مسير ساعة وقفت العربات أمام دنشواى . فنزل عبد العال ووقف أمام عربة الميجر وأدى السلام العسكرى في حالة نزوله .

فقال الميجر : أين الأومباشى ؟

— هو هنا يا سيدى .

— انظر ، انظر خلفك فإنى أرى رجلا يتقدم — وأظنه العمدة — فاسأل لنا منه الإذن .

فسار عبد العال حتى صادف شيخاً في حدود السبعين شيبت السنون شعره . وكان اسمه حسن محفوظ يسير في طريقه ، فأوقفه وقال له . يا عم يا عم ؟ السلام عليكم .

— وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته .

— يا ترى ممنوع الصيد هنا والا لأ ؟

— ممنوع الصيد بين المساكن والأجران . وإنما إذا كانوا عاوزين يصطادوا يبعدوا حبه .

— طيب احنا شيعنا لكم الأومباشى جه والا لأ ؟

— ما نيش عارف .

فسار الشابان إلى الجهة التى عينها الميجر لهما .

وفي أثناء سيرهما قال بورتر لزميله :

— هل تراهنى يا صديقى على أنى سأصيد أكثر منك ؟

— نعم أراهن بزجاجة وسكى .

— ولقد قبلت .

— إذن فاستعد .

وكانا قد بلغا المكان المعين .

فأطلق اللفتننت الخرطوش . فأصيبت حمامة كانت تطير فنزلت إلى الأرض تهوى فصرخ بورتر انظر . . ترك . . ها هى حمامة أخرى :

— نحن متساويان الآن فهيا .

— . . ترك . . . ترك .

— . . ترك . ترك .

— كف كف يا لفتننت عن الطلق فإن الأهالى مقتربون منا وأخاف أن يصاب إنسان بضرر .

فهز اللفتننت كتفيه وأطلق طلقة . وفي الحال لاح لهما عن بعد دخان ونار مشتعلة .

فصرخ بورتر وقال : لقد حرقت شيئاً بنار بندقيتك يا لفتننت . انظر إلى الدخان . كف كف عن الطلق .

— . . . ترك . . . ترك .

— كف كف فإن الأهالى قد اجتمعوا عند النار .

— وماذا يهمنى ؟ وكيف أترك هذه الحمامة الطائرة تفرمنى ؟ ثم أطلق بندقيته مرة ثالثة .

فنظر بورتر فرأى أن بعض الأهالى اجتمع حول النار يطفئونها والبعض جاء إليهما !

*

نترك هذين الصيادين قليلا ، ونذهب بالقارئ إلى المكان الثانى حيث القومندان ورفيقاه يصيدون هناك ، ونبدأ بقصة صيدهم .

قال الكبتن بول : سرى يا قومندانى العزيز من منا يصيد أكثر .

أتظن أن تنظيفك لبندقيتك سيكون سبب ذلك ياكبتن؟

— أظن . اسمع . . ترك ! . . ها قد اصطدت حمامة .

— . . . ترك . . . وأنا أيضاً يا بول .

— لقد أخطأت يا قومندانى !

— . . . ترك . . . ترك . . . لم أخطىء هذه المرة !

— . . . ترك . . . ترك . . . تمب . . .

— . . . ترك . . . ترك . . . تمب . . .

— . . . ترك . . . ترك . . . تمب . . .

— . . . ترك . . . ترك . . . تمب . . .

— . . . ترك . . . ترك . . . تمب . . .

— ما هذا الحمام الكثير يا قومندان ؟

— ألم أعدك بذلك يا بول ! ؟

— إذن فعشاؤنا هذه الليلة لذيذ .

— جداً ! جداً .

كم أنا جوعان وأتمنى أن يأتى الليل لنذهب إلى المعسكر فنتمتع بهذه الأكلة اللذيذة .

— . . . ترك . . . ترك . . . تمب . . .

— . . . ترك . . . ترك .

— لقد اخطأت .

— . . . ترك . . . ترك . . . تمب .

— ولكننى لم أخطئ هذه المرة .

— انظر ! يا قومندان ما هذه النار المشتعلة أمامنا ؟ .

— لا أدرى . وأخاف أن تكون نتيجة نارنا .

— بالحق إنى خائف من ذلك .

— إنى أؤكد يا قومندان بأنها من نار أحد رفقائنا الذين هما في الجهة الثانية .

— وأظن ذلك .

— انظر . كيف اجتمع الأهالى لإطفاء الحريق ؟

— هيا ولنسرع لنعلم الخبر .

فجرى بسرعة الميجر ومن معه خلف عبد العال نحو اللفتننت ورفيقه بورتر .

نظر الأهالى فرأوا الإنجليز قادمين عليهم بخيلهم ورجلهم ليصطادوا حمامهم الذى يقتاتون منه فسكتوا وسلموا أمرهم لله . وكمش كل إنسان في مكانه بدون أن ينبس ببنت شفة .

وكان محمد عبد النبى وامرأته مبروكة في جرنهما ينظران إلى عمل النار في حمامهما ويتحسران . وبينما هما في حسرتهما إذ جاءت رصاصة فأصابت مبروكة فوقعت من على النورج تتخبط في دمها ، وسرى هذا الدم الأحمر القانى إلى القش الأبيض الناصع فكان المنظر موثراً ، فقام محمد عبد النبى وأكب على وجهها وهو يبكى بكاء مراً . وفي أثناء بكائه نظر فإذا النار مشتعلة في جرنه . فازدادت مصيبته وصرخ بأعلى صوته على الصيادين : يا ناس حرام عليكم ، يا ناس موش كده ، موتوا مراتى وحرقتم جرنى .

وفي أثناء صياحه وقعت حمامة مقتولة على رأسه فاستولى على قلبه الحزين الرعب (فنط) من الجرن وأخذ يعدو من الخوف ، وترك امرأته مضرجة بدمائها .

فالتف حول جرنه الأهالى ، وأخذوا يطفئون النار . أما هو فسار مسرعاً جهة الصيادين باضطراب عظيم وصرخ فيهما : حرام يا ناس .

فانتهره اللفتننت وقال غاضبا : جود ديمن بلاد فول ! !

ثم أراد أن يهجم عليه ويضربه ، فخاف محمد عبد النبى من الإنجليزى لئلا يقتله ، فمسك منه البندقية بقوة شديدة ، فاستاء اللفتننت من ذلك وأخذ يضربه بجزمته بقوة على (قصبة رجله) .

والرجل يصرخ ويستغيث . فجاء على صياحه بعض الأدالى وفي مقدمتهم شيخ الخفر وخفيران . فظن المستر بورتر أنهم جاءوا لقتالهما فضرب بندقيته وأطلقها عليهم فأصابت ثلاثة أشخاص منهم .

فهاج لذلك الأهالى وهجموا على الضابطين ليأخذوا منهما سلاحهما ، فضرب الضابطان الأهالى بأرجلهما ، وفي تلك اللحظة قدم الميجر ومن معه فرأى الخطب جسيما والمصاب كبيراً ، فحاء إلى اللفتننت — وعلامة الغضب بادية على وجهه — وقال له :

سلم لهم البندقية . ثم حانت منه التفاتة فرأى الكبتن بول محاطاً بكثير من الأهالى قابضين على بندقيته ، فصاح عليه بأن يسلم هو أيضاً .

ولما رأى أن الأهالى لم تكتف بذلك عمد إلى تسليم بندقيته ، وأمر الباقي بذلك فسلم الضباط سلاحهم العسكرى ورفعت الراية البيضاء علامة التسليم . ثم قبض الميجر بيده اليمنى على يد بورتروباليسرى على يد اللفتننت إتماماً للحيلة تظاهرا بأنهما سجناء . ثم ساروا جهة العربات فسارت الأهالى من خلفهم ، وكان الكبتن بول متخلفاً عن رفقائه قليلا .

فنظر الميجر يمنة ويسرة يبحث عن الأمباشى فلم يجده إلا على بعد خمسين ياردة واقفاً ينظر إليهم من على جواده . ولما رأى الضباط ينظرون إليه عمل (حازطور) وهو بعيد عنهم على ظهر الحصان ! فعض الميجر على شفتيه من الغيظ .

ثم التفت إلى عبد العال فلم يجده . ولكن رأى الكبتن بول يصرخ في الأهالى ويتوعدهم بكل مصيبة . ولم يكتف بذلك بل ضرب أحدهم على وجهه فأراد الميجر أن يجرى إليه ليمنعه . ولكن رأى على فجأة الضباط يضربون الأهالى والأهالى تضرب الضباط .

فجرى حتى دخل وسط المعمعة . وأراد أن يفصل بينهم. ولكن لم يشعر إلا وقد وقعت على رأسه ضربة أذهلته فغاب عن صوابه . فرجع الضباط القهقرى . ولكن الأهالى لم تمهلهم ، فتقدموا إليهم وضرب كل واحد منهم واحداً فتشتت شملهم ، فصرخ الكبتن بول : آه يا قومندان .. لماذا سلمنا سلاحنا ؟ فلم يجبه إنسان على سؤاله ! فأخذ المسكين يعدو والأهالى من خلفه تقذفه بالحجارة والطوب ، فأراد اللفتننت أن يساعده فأخذ يجرى خلفه حتى رأى طوبة صدمت رأس الكبتن بول فشجتها وسال الدم ، فرجع هاجماً على الأهالى ليضربهم . ولكن أحدهم ضربه بطوبة على أنفه. ثم رأى الميجر يضرب أحد الفلاحين ويرفسه برجله فجرى ليساعده. ولكن وقف بغتة على أثر رؤية ضربة من أحد الفلاحين كسرت ذراع الميجر . فاصطكت أسنانه من الرعب خصوصاً عندما رأى القومندان على الأرض مغشياً عليه .

الفصل الرابع

شهيد سرسنا

ثم صرخ الكبتن بوستك بأعلى صوته : الهرب . الهرب . يا بول ! أين الأومباشى ؟ أين عبد العال ؟

لا أدرى أين هذا العسكرى الجبان ! اذهب يا بوستك جهة الشمال إلى أقرب نقطة وأخبر الخفر بهذه الواقعة .

فدار بوستك حول نفسه دورتين وقال : إلى أين أذهب ؟

— إلى الشمال ! إلى الشمال !

— وأنت ؟

— إلى اليمين !

فجرى الكبتن بوستك جهة الشمال بهيئة مضحكة لأن ملابسه كانت كلها ممزقة ، وعلاوة على ذلك فإن حمالة البنطالون كانت قطعت فنزل « البنطالون » إلى ركبتيه — مما أعاقه عن العدو قليلا — فوقف وشده إلى بطنه والتفت فلم ير الكبتن بول فقوى نشاطه وجرى مسرعاً . ولكن نزول بنطالونه ثانية إلى ركبتيه أعاقه ، فخلع البنطالون بسرعة ووقف حائراً لا يدرى أين

يذهب ، ولكن خطر في فكره الذهاب إلى المعسكر فرجع ثانية يعدو جهة اليمين بهيئة مضحكة . فإنه كان مرتدياً ملابسه العسكرية الجميلة . ونياشينه اللامعة ، ولكن بدون بنطالون ! . . وكان جسمه ظاهراً لأن من عادة الإنجليز عدم لبس السروال ! وفي منتصف الطريق رأى الكبتن بول مطروحاً على الأرض فجس نبضه ، ثم وضع يده على قلبه فرآه في حالة خطرة ، فنسي الرجل خطورة موقفه ، فركع على ركبتيه ، وضم يديه على صدره . وصلى صلاة صغيرة ، وطلب من السماء أن تنجي صديقه من الموت فنتح بول عينيه . فقال بوستك : تجلديا صديقي !

فتمتم بول : إلى أين ذاهب ؟

— إلى الأمام . إلى المعسكر .

ثم تركه وجرى حتى وقف على شاطىء الباجورية وتأمل في النهر قليلا ، ولكنه تشجع وقذف بنفسه في الماء ، وسبح حتى وصل الشاطىء الثانى . وتابع العدو وهو بهيئته المضحكة ، وفوق ذلك كان الماء يقطر من الجاكتة ! !

أما الكبتن بول فنظر جهة اليمين والشمال بصعوبة زائدة وهو مطروح على الأرض . ولما لم ير إنساناً قال : آه .. أين أنا؟ إنى ظمآن أريد قليلا من الماء . أريد قليلا من الوسكى ! لا أريد أن أموت ظمآنا ! أنا انجليزى لا أموت ظمآنا .

ثم أبصر عن بعد فلاحاً يقصده فخفق فؤاده ، وضم يديه على صدره يصلى على نفسه صلاة الموت !

أما هذا الفلاح التعيس — وكان اسمه سيد أحمد سعيد — فاقترب من الكبتن ، ولما رأى حالته المحزنة قال : لاحول ولاقوة إلا بالله العظيم . إنا لله وإنا إليه راجعون . أنت من السابقين ونحن من اللاحقين . أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله ! .

ففتح الكبتن عينيه لأنه كان أغمضهما لئلا يرى بهما عصاة الفلاحين تأخذ بقية حياته . ولما شعر بتأثر الفلاح قال له :

— أيها الإنسان : إنى أناشدك بالشفقة أن ترحمنى وتسقينى قليلا من الماء . فلم يفهم الفلاح قوله بل ظل يردد : إنا لله وإنا إليه راجعون .

ففطن بول إلى جهل الفلاح بلغته ، فأشار له بأنه يريد أن يشرب ، فأسرع الفلاح إلى قناة وأخذ في راحتيه قليلا من الماء ثم وضعه في فمه ، فقال الكبتن في نفسه . يا ربى إن الماء قذر ويديه قذرتان فكيف أشرب ؟ ألا يوجد عندهم (فلتر) مرشح ؟ .

ولكنه أحس بانتعاش فأشار له بأن يعطيه أيضاً قليلا من الماء ، فهرول الفلاح يلبى الطلب .

ولكن كان الكبتن وصل إلى نقطة الموت فأخرج من جيبه صليباً صغيراً وضمه إلى صدره ثم قال : آه يا أمى العزيزة إلى اللقاء في السماء ! إلى اللقاء هناك .

ثم أغرورقت عيناه بالدمع وقال : يا إلهى كيف أموت هذه الميتة الشنيعة ؟ وفاضت روحه وهو قابض على الصليب وشفتاه تتحركان باسم أمه العزيزة .

أما الفلاح فأخذ يقلب كفيه ويردد دائماً : إنا لله وإنا إليه راجعون . أنت من السابقين ونحن من اللاحقين !

وبعد لحظة رأى غباراً يتعالى . فوقف على رأس الجثة ينظر هذا الغبار ثم تبينه فإذا هو جنود الاحتلال قادمين بسرعة البرق .

فارتبك المسكين في نفسه . وخاف أن يتهموه بقتله ففر إلى مغارة أخفته عن العيون . إلا أن أحد الجنود شاهده وهو يلجها فاقتفى أثره . ولما رآه ضربه بقبضة البندقية ضربة هائلة على رأسه . ولم يكتف بذلك بل جرد (السنكة) وطعنه بها طعنات كثيرة . فمات الرجل شهيد مروءته وهو يصيح : مظلوم يا مسلمين والنبي مظلوم . أما باقي الجند فقد كانوا وصلوا إلى مكان الكبتن بول بقيادة الكبتن بوستك وهو بهيئته المتقدمة المضحكة . ولما رأوه ميتاً رفعوا قبعاتهم باحترام . وركعوا على ركبهم بخشوع . وصلوا بحرقة صلاة طويلة . ثم ترك بوستك جنديين لحراسة الجثة ، وواصل السير حتى جمع الضباط وهم في أسوأ حالة وعاد بهم وبالجثة إلى المعسكر .

الفصل الخامس

في قصر الدوبارة

دخل خادم إنكليزي إلى مكتبة اللورد كرومر وقال له :

— مولاي اللورد : إن المستر متشل يريد مقابلتك حالا.

فانقبض فؤاد اللورد من هذه المفاجأة وقال له :

— أدخله هنا .

وكان اللورد جالساً يقرأ في كتاب .

وبعد لحظة دخل المستر متشل بهيئة مريعة ، ووجهه أصفر بلون الموتى ، فارتاع من منظره وسأله : ماذا جد ياسيدي ؟

— مصيبة يا مولاي .

— تقول مصيبة ؟ ! أخبرني بسرعة .

— لقد أهين شرفنا العسكري . لأن الأهالي هجمت على ضباط الدراجون فقتلوا الكبتن بول وجرحوا بقية الضباط بجروح بليغة .

— وماذا فعلت ؟

— جئت أستشيرك يا مولاى .

فقطب اللورد حاجبيه وقال : الويل لهم ، أرسل يا مستر المضخات في الحال واملأها غازاً إلى هذه البلدة ، فأحرقها بأهلها ومواشيها ، أو أرسل البطريات المدفعية فدك البلدة دكاً ! ولكن أين هذه البلدة ؟

— في مديرية المنوفية واسمها دنشواى .

— من مديرها ؟

— محمد باشا شكرى .

— أذكر لى المسألة بالتفصيل .

فأخذ المستر متشل يسرد له وقائع الواقعة . وبعد أن انتهى منها قرب اللورد كرسيه منه وأخذا يتحدثان مقدار ساعتين ولم نعلم ما دار بينهما من الحديث . . ولكن عند الوداع ضغط اللورد على يد المستر « متشل » وقال له بغيظ :

— لا تنس أن تضرب الأمة المصرية بهاتين الضربتين ، ضربة تعيين الهلباوى في وظيفة المدعى العمومى ، وشدة الحكم حتى تقشعر منه الأبدان . وسآمر حالا نظار الحكومة المصرية بتشكيل المحكمة المخصوصة .

وبعد خروج المستر متشتل تمتم اللورد : أريد ألا يراق دم إنجليزى بسهولة وبساطة !

الفصل السادس

بين الهلباوى وضميره

لم هذا التردد ياهلباوى وأنت قادر على كل شىء ؟! وماهذا الضعف ؟! بل ماهذا الجنون؟ أتترك هذه الفرصة تفوتك وتدوس المستقبل إكراماً للماضى ؟ إن هذا هو البله بعينه ! إن أبواب المستقبل الزاهر مفتوحة أمامى . وبخطوة واحدة ، ألجها فهل أوصدها بيدى ؟ كلا كلا . فلن يكون ذلك أبداً .

نطق هذه الجملة الطويلة إبراهيم بك الهلباوى على أثر وصول كتاب إليه من الحكومة المصرية بتعيينه مدعيا عمومياً أمام المحكمة المخصوصة التى تقرر انعقادها لمحاكمة الدنشاويين .

ولكنه أعاد تلاوة الكتاب مرة ثانية فاقشعر بدنه وصرخ : يا لهول موقفى ! ماذا أفعل يا إلهى ؟ كلا كلا فإن للوطن حقوقاً مقدسة يجب أن تراعى ، وللضمير صوتاً لابد وأن سمع ، وللشرف طريقاً لابد وأن يسلك فيه . فمن الجبن

أن أدوس على كل ذلك بقدمى حباً في الفخفخة والظهور ! الأجل وظيفة أطمع في نيلها أجنى على نفسى جناية تسود تاريخ حياتى ، وتكون إكليل عار وشنار لأولادى ؟ كلا . . فأنا بحمد الله ، غنى فلم هذه الدناءة والتطوح في وهدة الموت الأدبى ! أأكون خائناً ! أأغير مبدئى ! ألم أكن أنا عدوسياسة الإنجليز الألد ! ألم أكن أنا صاحب مقالات « إلى أى طريق نحن مسوقون » ! أأقف في الغد أطلب إراقة دماء أبناء وطنى المهضومى الحقوق المظلومين ! أأطلب سحقهم ! أأستخدم قوتى وما آتانيه الله من المواهب العقلية لسحق أبناء بلادى ! إن موقفى يحتم على وصفهم أمام أعدائهم بأقبح الصفات ، فهل أفعل ذلك ! أأنسى لمجرد أملى في الحصول على وظيفة سامية واجبات وطنى ؟ كلا كلا ! فماذا كنت يا هلباوى وماذا أنت اليوم ! ألم أكن فقيراً معدماً ! ألم أكن فلاحاً من صميم الأرياف ! ألم أصل إلى ما أنا فيه من الاحترام واليسار إلا بأبناء وطنى ! أأكافئهم على ذلك بأن أخرج عليهم ! أأكون سهماً دامياً في أحشائهم ! إن ذلك لن يكون أبداً .

وبينما كانت الحرب قائمة بين الهلباوى وضميره بمثل ما قدمنا إذ دخل عليه خادم وأعطاه كتابا ، فتناوله وفض غلافه ، فألفاه من عظيم من عظماء الإنجليز فقرأ ما تعريبه :
صديقى الأستاذ هلباوى بك .

أهنئك على الثقة الكبيرة التى نلتها بانتدابك لموقف المدعى العمومى فكتبت إليك هذه التهنئة ليكون لى شرف أول مهنئ لك ، وأتعشم بأن أهنئك . . قريباً بغير ذلك .

الامضاء(. . .

وبعد أن أتم الهلباوى قراءة الجواب وضعه على مكتبته وجلس خلفها ساكناً يفكر في موقفه . وبعد ذلك تبسم وقال :

— إن من العقل أن يلبس الإنسان لكل موقف لبوسه . فلا أدع هذه الفرصة تفوتنى لمجرد وهم تجسم حتى خلته حقيقة . فسأقبل هذه الوظيفة بانشراح تام ، وماذا على لو صممت عن سماع كلام الناس وضربت بما سيكتبونه عرض الحائط ؟

وبهذا التعليل تغلبت المطامع على الضمير . قبل الهلباوى الوظيفة . ثم أخذ يسهر الليل ويشتغل النهار منقباً في القوانين ومشاهداً آثار الحادثة حتى استنتج ما أراده وفاه به في الجلسة كما سيجىء .

الفصل السابع

بعد المعركة

وبعد المعركة تماماً قفلت أهالى دنشواى راجعة إلى بلدتهم فجلسوا بجانب جرن هناك منهوكى القوى ، وكانت علامات الغيظ بادية على وجوههم السمراء .

وبعد أن جلسوا قليلا قال محمد يوسف : أعوذ بالله دا شىء يطلع الإنسان من دينه ده غلب إيه ده !

فأجاب محمد زهران قائلا : دى إيه المصايب دى احنا كنا فين والإنجليز فين ؟ !

فقال محمد أحمد السيسى ، وعلى الطلاق بالتلاته ما انا الا دابح كل الحمام اللى عندى وستين سنه .

فلطم حسين سليم بيديه وقال : إحنا موش في كده . قطع الحمام وأصحابه . إحنا دى الوقت في مسألة ضرب الانجليز .

فقال السيد عيسى سالم : تفتكر انه ما فيش عدل في البلد . . ده كلام إيه ده هى البلد سايبه من غير حاكم !

— عدل مين يا عم هو فيه عدل في البلد ؟ كل شيء ماشي اليوم بالعافية والدراع ، وبكره تشوف رايحين يعملوا إيه فينا .

فقال السيد العوفي : يعملوا إيه بس يا مسلمين يا خلق هوه . بقه ييجوا يهجموا على حمامنا اللى بنتعيش منه ، ويصطادوه . ويقتلوا نسوانا ، ويحرقوا زرعنا ، وبرضه نسكت لهم ؟ يا هوه اتكلم . ما تتكلم يا احمد يا عبد العال .

— أتكلم ايه وأقول ايه ومين يقرأ ومين يسمع ؟

فقال محمد يوسف : بلاش لحمه يا جماعة ومتطبوش قلبنا بالكدب وقولوا نعمل ايه ؟

قال محمد الغباشي : ما فيش حاجه يا لله نهرب ونسيب البلد مدعوءة على اللى فيها .

— وفاكر انهم ما يظبطناشي وتبقى داهيتنا كبيرة ؟

— لأ . يا لله نهرب في مديرية الجيزة ، وفين على ما يحصلونا ويضورم علينا .

— يا شيخ ما تقولشي الكلام ده .

— امال نعمل ايه ؟

— أحسن شيء إننا نجتهد في أن نقول لهم الحقيقة ونقول : اننا كنا بندافع عن حمامنا والدفاع عن الحق واجب .

— ما حدش يسمع لنا كلام .

— أمال نعمل ايه ؟

— نرمى تكالنا على الله وهو اللى يدبرها .

— يا شيخ تكالنا مين ؟

فقال حسن محفوظ : إذا كنتم خايفين كده بتعملوا العمله دى ليه ؟

— أهو يا محفوظ المقدر كده .

— ماكنش عندكم عقل ساعتها ؟ !

فأجابه عبد النبي سليم قائلا : أنهى عقل بس اللى عاوزه ؟ حد يكون في غيظه ويكون عنده عقل ؟ ايه الكلام ده ؟

فقال محمد يوسف : يا جماعه قولوا لى بس كنا يا ترى نسيبوهم يعملوا زى ما هم عاوزين والا ايه ؟ ما ندافعوشى عن حاجتنا ؟

فرفع محمد زهران لبدته من على رأسه ، ونظر إلى السماء بعينين ملء جفونهما الدمع وصرخ :

اللهيخرب بيتك يامحمد ياشادلى ، ويتم أولادك . ولاتوعى تقوم من مطرحك ، لإنك السبب في ده كله .

ثم خبأ وجهه في كفيه ، وأخذ يبكى كالأطفال .

وفي هذه اللحظة أدرك الفلاحون خطورة موقفهم .

فقال محمد عبد النبي : آه .. ياخراب بيتى ! مراتى بتطالع في الروح يا جماعة اعذرونى .. يا ناس اعذرونى .

فخرج من صدر كل من كان حاضراً تنهد عميق وسكتوا كأن على رءوسهم الطير .

فقال —بعد هنيهة— حسن محفوظ : ياجماعة دبرونا رايحين نعمل ايه ؟

— نعمل ايه يا عم محفوظ ؟ عملنا اسود على راسنا بكره يودونا في داهيه .

فاقشعر بدن الجميع لهذه الجملة .

وكان بين المجتمعين شيخ في حدود التسعين من عمره مقعد فقال لهم :

اسمعوا يا ولادى كلامى واقبلوا نصايحى .

فصرخ الجميع : اتكلم يا عم الحاج عمران .

فاعتدل الشيخ وتربع جيدا ثم قال : اللى فات مات وأنتم معذورين قدام الدنيا كلها . ولكن لو خدوا رأيى لكنت أول شيء أحكم على محمد الشاذلى بالحرق لأنه هو السبب . علشان لو كان قال للمدرية من السنة اللى فاتت عن شكوتكم ماكنش حصل اللى حصل النهارده . ولكن كل شيء مقدر واللى مكتوب على الجبين تراه العيون ، فاحسن حاجة تنقوا عشر تنفار منكم يسافروا بكره في المديرية . ويقولوا على المسألة من طأطأ لسلاموعليكم .

وماكاد الشيخ ينتهى من كلامه حتى قدم رجل وقال لهم :

يا ويلنا . . يا ويلنا . . انتم ما سمعتوش الخبر ؟

فارتجفت أعضاء المجلس وتطاولت أعناقهم وقالوا كلهم :

— لأ . خير خير قول قول !

— واحد من الانجليز اللى ضربناهم مات .

ولما سمعوا كلامه نزلت أعناقهم على صدورهم وسكتوا . فقال عم الحاج عمران : لاحول ولاقوة إلا بالله ! لاحول ولا قوة إلا بالله ! كل شيء بارادته كل شيء بحكمه .

فصرخ محمد زهران وقال : اتكلم يا حاج عمران نعمل ايه قول لنا العمل ايه ؟

— المسألة أكبر من الأول ، والمصيبة رايحة تنزل على دماغنا كلنا .

وكان لعم الحاج عمران منزلة كبيرة عند أهل بلده . فهم يحترمونه ويعتمدون على أفكاره وآرائه . فلما قال جملته الأخيرة أسودت الدنيا في أعينهم فبكت الرجال . وولولت النساء ، وحكموا على أنفسهم بأنهم كانوا غلطانين وتندموا على ذلك كثيرا — وأعقب هذا الانفعال النفسانى سكوت كبير .

وبعد هنيهة تحرك الحاج عمران من مجلسه قليلا ثم تنهد وقال لهم :

ما فتكرتوشى يا ولادى في النتيجة ؟ ليه تعملوا كده ليه ؟

فقال محمد المؤذن : نعمل ايه ياعم عمران ازاى ا؟ بقى لهم خمس سنين بييجو يقتلوا الحمام ويحملوه في زكايب وبعدين نعيش منين ؟ أنه عادل يقول كده ؟ هم حكام مصر ما فيش في عينهم نظر ؟ بكرة لما يسمعوا حكايتنا يرأفوا بحالنا ويبرءوا ساحتنا .

فضحك عم الحاج عمران وقال : اللى بتقوله ده في المنام يا محمد . فين العدل اللى في مصر ! إذا كان فيه عدل — زى ما بتقول — كان تهجم على بلدك الانجليز ويصطادوا حمامكم ، ويموتوا نسوانكم ، ويحرقوا جرنكم ، كان العدل زمان يا ابنى زمان .

— وتفتكر ايه اللى يعملوه فينا ؟

— يعملوا كل شيء يقدروا عليه .

— مين هم ؟

— الانجليز .

— طيب وحكامنا رايحين يسيبوهم يعملوا فينا اللى عاوزينه ؟

فتبسم الشيخ وتنهد وقال بعد أن هز رأسه (أيضاً) :

— والله عالمى عالمك يا ابنى .

فقال حسن محفوظ : يا لله كل واحد يروح بيته واللى في علم الله يكون . فقاموا بدون أن يسلموا على بعضهم خلافاً للعادة .

* * *

وبينما كان الجمع في المحادثة المتقدمة كانت «ست الدار» جالسة بجانب أحمد زايد في الجهة الثانية . وجرت بينهما المحادثة الآتية بدون أن يلتفت إلى غيابهما أحد ، لانهماكهم في تقرير ما سيجيء به غدهم .

قالت ست الدار : عاوز منى ايه يا احمد يا زايد ؟ بس قول عاوز ايه ؟

— أنا عاوزحاجة كبيرة . أنا عاوز اتجوزك علشان انى بحبك جوى ! جوى ! جوى !

— بس ازاى اتجوزك وأنا مكتوبة الكتاب ؟

— اسمعى بقه : تقولى لأبوك انك منتش عاوزة محمد العبد

— ازاى وأنا عاوزاه ! ؟

— تعرفي شغلك .

— بس ايه العداوة دى يا احمد ؟

فتبسم الخبيث وقال لها :

بقه احنا في الجد .. وان ماكنتيشى رايحه تتجوزينى أنا رايح ابلغ اسم ابوك في المديرية وأقول : انه هو اللى ضرب الانجليز .

— يا دهوتى ! منك لله ! عاوز توديه في داهيه ؟ يا شيخ خاف من ربنا واتقى الله ده كان في الغيط .

— أخاف ما اخافشى ده موش شغلك أنا عاوز اتجوزك وشاورى عقلك .

— في عرضك يا زايد .. فيطولك يا احمد ما تخربشى بيتنا . .

— أهو إذا كنت عاوزه انه يتخرب عانديني .

— لأ لا ! أتجوزك واعمل معروف ما تبلغش عن اسم ابويه .

— اتفقنا .

— خلاص .

— بس رايحه تقولى إيه ؟

— أقول لأبويه انى عاوزه اتجوزك .

— بس قولى كده ، وانا على الباقي .

— طيب .

وفي هذه اللحظة انفض اجتماع الأهالى ، فقام حسن محفوظ وقال : يا ست الدار .. يا ست الدار ..

— عاوز إيه يا ابويه ؟

— يا لله ندخل .

فهمس أحمد زايد في أذنها : يالله نقرا الفاتحة . .

فقرآ الفاتحة . ثم اتجهت جهة أبيها ودخلت معه ، وقصت عليه هناك كل ما دار بينها وبين أحمد زايد من الحديث فقال لها :

— اوعى تقولى لى كده والا موتك . ده ابن كلب خاين ولاتخافيشى على وبكره أوريه شغله .

ثم أطبق الليل بظلامه على بلدة دنشواى ، فجرى النوم في عيون أهلها كما جرى الشقاء عليهم ، فناموا بليلة الملسوع .

الفصل الثامن

المحكمة المخصوصة

في الساعة العاشرة من صباح يوم ٢٥ يونيه رفع الستار عن هيئة المحكمة المخصوصة . فتطلع إلى مشاهدة تمثيل هذا الفصل المضحك المبكى عشرة ملايين مصرى .ونادى رجل غليظ الجسم قصير القامة بصوت جهورى : المحكمة المخصوصة . فقام كل الحاضرين على أقدامهم إجلالا واحتراماً . فدخل سعادة بطرس باشا غالى وجلس على كرسى الرئاسة بعظمة وأبهة ، ثم جلس إلى يمينه المستر هينز النائب عن المستشار القضائى ، ثم فتحى بك زغلول ، وإلى يساره المستر بوند وكيل الاستئناف ، فجناب المستر لادلو بملابسه العسكرية وكان خالعاً قبعته . وجلس إلى يسار الجميع هلباوى بك المدعى العمومى ، وبجانبه سعادة مدير المنوفية ، وجناب مستشار الداخلية بصفة خارجة عن هيئة الجلسة الرسمية . وعلى اليمين جلس عثمان بك مرتضى على كرسى الكتابة .

ولما استوى الرئيس على كرسيه أجال نظره يمنة ويسرة

فسره النظام . ثم حانت التفاتة فرأى أصحاب الجرائد ومكاتبيها جالسين بهيئة مضحكة ، لأنهم كانوا متباينى الخلقة والوضع ، وجميعهم قد مدوا أعناقهم كأنهم يريدون التهام أعضاء المحكمة بأنظارهم ، ولما رآهم الرئيس قطب حاجبيه وظهر أنفه أكبر من حالته الطبيعية ! أما المستر بوند فنظر إليهم وتبسم تبسماً خفيفاً . والغريب أن جناب المدعى العمومى لم يرفع نظره إليهم ، بل اكتفى بالنظر في وجه المستر بوند كأنه يؤكد له في كل نظرة إخلاصه وولاءه .

وكان عثمان بك يهز رأسه من آن لآخر ، ثم ينظر في الأوراق التى على مكتبته ، ثم يجيل نظره في الحاضرين ويبتسم تارة ، ويقطب تارة أخرى .

وبعد لحظة من جلوس الأعضاء نودى على المتهمين وهم اثنان وخمسون متهما فكانوا حاضرين إلا سبعة .

والغريب أن اسم حسن محفوظ ومحمد العبد كانا ضمن أسمائهم ، وذلك يدلنا على أن أحمد زايد هو الذى اتهمهما حينما أدرك خيبة مسعاه في زواجه بست الدار . والحق يقال إن ثلثى المتهمين كانوا أبرياء ، وما أدخلوا في موقفهم هذا إلا بوشاية أعدائهم الذين هم من جنسهم ، وذلك كما أدخل أحمد زايد حسن محفوظ ومحمد العبد في التهمة .

وبعد ذلك قام كاتب المحكمة ، وتلا قرار نظارة الحقانية بصوت عال ، وجلس بعد أن ألقى بنظره إلى وجوه أصحاب الصحف ومكاتبيها .

وبعد جلوسه قام إبراهيم بك الهلباوى ، وطلب من هيئة المحكمة أن تكلف أحد حجابها بمشترى لترين من الكولونيا

ورشهما في أرض المكان لمنع رائحة القرويين المتهمين ، ولأنه عصبى المزاج فلا يمكنه أن يتحمل شمها .

فقال له أحد الأعضاء : وأى جنس تريده ؟

فقال الهلباوى بفصاحة : أتكنسون .

وعندما نطق بهذه الكلمة ضجت الناس بالضحك وخيل للمتهمين أن كلمة « اتكنسون » بند في القانون للعفو .

فاضطر سعادة الرئيس أن يطلب حفظ النظام .

ثم التفت إلى الهلباوى وقال له :

— ألا تعلم يا جناب المدعى العمومى بأنه لايوجد في شبين الكوم « أتكنسون » .

— غريب ألا يوجد عند الفلاحين روائح عطرية !

— يوجد عند الفلاحين روائح ، ولكنها غير المطلوب .

فقال أحمد بك حبيب عمدة الناعورة :

— عندنا يا حضرات الأعضاء رائحة اسمها « سنبل وخزامه » فهل توافقون على إحضارها ؟

فأشار الرئيس برأسه إشارة الإيجاب . أما النائب العمومى فتضجر لأنه لم يسمع بهذا الاسم في حياته ! ولأنه من طفولته متعود على الأتكنسون .

وبعد ذلك وقف الهلباوى بعد أن أقسم بأن ينزل الصواعق على رءوس المتهمين لأن رائحتهم سببت له عسر الهضم . فقال :

— أطلب من المحكمة سحق هؤلاء المتهمين أجمعين لأنهم هجموا على الضباط وقتلوا الكبتن بول وأصابوا باقي الضباط بجروح بليغة . وحيث إن هذا الجرم من الجرائم الفظيعة فأرجو وأتوسل أن يكون الحكم عليهم بأشد عقوبة بعد سماع شهادة الشهود .

ولقد أثر هذا الطلب المخيف في المتهمين ، حتى إنهم « عرقوا »من قسوته ، فازدادت رائحتهم وازداد لذلك عسر هضم الملباوى .

وبعد جلوس المدعى العمومى بدأت المحكمة في سماع شهادة الشهود ، فجاء الشاهد الأول وهو الميجر بن كوفين قومندان الفرقة — وساعده الأيسر مرفوع إلى صدره — ولما وقف بين أيدى القضاة نظر في وجوههم قليلا وطلب أن يجلس لأنه مريض ، ولما جلس أمر الرئيس أن يعرض عليه المتهمون فعرضو اعليه واحدا بعد واحد . فكاد يضحك لأنه لم يتذكر أنه رأى شبهاً من هذه الأشباه ، وأوشك أن يقول ذلك لولا أن نظرة من نظرات أحد الجالسين على منصة الحكم أجمدت الكلمة بين شفتيه .

فقال الميجر في نفسه : وأى شيء يهمنى ؟ ومصر — كما قال عميدنا— بلاد العجائب والغرائب فلا غريبة إن كانت أحكامها عجائب وغرائب . .

ثم نظر بعظمة إلى المتهمين وقال في نفسه : أنا الحاكم المطلق في أرواحكم . فبكلمة منى أذهب بكم جميعاً وبكلمة منى أعيد لكم الحياة .

فسأله الرئيس بعد أن حلف اليمين :

— من تتهم بالتعدى عليكم ؟ فسار الميجر بين صفوف المتهمين كما كان يسير بين صفوف جنده متأملا في وجوههم ، فأول ما وقع نظره على عبد المنعم محفوظ رأى ذقنه كبيرة فقال في نفسه لأبلغن عن هذا الرجل عقاباً له عن عدم حلقه ذقنه ، ثم رأى محمد مصطفى محفوظ فبلغ عنه لأنه كان كبير البطن ، وبعد ذلك نظر إلى محمد العبد فأعجبه قوامه فقال : إن هذا الشخص لم يكن موجوداً . ثم نظر إلى محمد على محمد وقال : ولاهذا الشخص .. لأنه كان طويل القامة ينفع أن يكون من عساكر الدراجون ، ثم نظر إلى محمد درويش زهران فرأى وجهه كئيبا فأبلغ عنه أنه كان موجوداً . وهكذا أخذ يسير بينهم — وحياة المتهمين بين شفتيه — حتى أبلغ عن الذين لم ترق هيئتهم في عينه وعفا عن الآخرين .

فقال له سعادة الرئيس :

— ماذا حصل لك يوم ١٣ يونية ؟

— خرجت أنا وباقي الضباط إلى الصيد في بلدة دنشواى. وماكدنا نصطاد حتى هجم علينا الأهالى وضربونا ، وسلبونا ، وقتلوا الكبتن بول .

— ألم يكن لهذه العصابة رئيس ؟

ففكر الميجر قليلا وقال :

نعم كان لها رئيس .

— أيمكنك أن تعينه لنا من بين المتهمين ؟

فمشى الميجر بين صفوف المتهمين إلى أن وقف أمام محمد درويش زهران صاحب الوجه الكئيب وقال :

هو هذا يا سعادة الرئيس .

فتبسم الرئيس وقال له : ثنكس .

ثم ذهب الميجر وجاء بعده اللفتننت سميث ويك فحلف اليمين القانونية بغيظ شديد ثم سأله الرئيس قائلا :

— ماذا حصل لك يوم ١٣ يونيه ؟

— ذهبت مع الضباط للصيد . وفي أثناء ذلك هجم الفلاحون هؤلاء المتوحشون علينا وأخذوا سلاحنا وسلبونا وقتلوا الكبتن بول .

— تتهم من بالتعدى عليكم ؟ انظر في وجوه هؤلاء الأشرار .

فاضطرب اللفتننت وخفق فؤاده لأنه قادم على أمر جلل فقال :

— أظن أنى لا أعرف المتهمين لأنهم كلهم يشبهون بعضهم . وفي هذه المدة تغيرت هيئتهم وطالت ذقونهم .

فقطب أحد القضاة حاجبيه وقال له :

— قل بالتقريب .

فصدع اللفتننت بالأمر ، وسار يمر على المتهمين ، وعندما وقف أمام درويش زهران قال له أحد القضاة وقد خاف أن يمر عليه دون أن يخرجه :

— ألم يكن هذا رئيس العصابة ؟

— نعم .. وزيادة على ذلك فهو الذى خطف منى البندقية ، وكان يظهر على ملامحه ما يفيد أنه من رؤساء العصابة .

ثم سكت . ولما رأى البشر على وجوه القضاة قال :

وإنه أيضا كان يحرض الناس على التعدى على الضباط .

— فيرى جود ، تمم بحثك في باقي المتهمين .

فارتبك مرة ثانية ، ولكنه أغمض عينه وأخذ يخرج من بين المتهمين ما شاء . وكان كلما أخرج واحداً يصف تهمته وصفاً جلياً كأنه يعرفه من سنين . والمدهش أن الشاهد لم يعرض عليه أحد من المتهمين وقال إنه لا يعرفه .

فتبسم له الرئيس ابتسامة أكبر من ابتسامة الضابط الأول وقال له :

ثانكيو .

ثم ذهب اللفتننت ، وجاء بعده الكبتن بوستك فحلف اليمين فسأله الرئيس :

ماذا حصل لك يوم ١٣ يونيه ؟

فقال : كل إهانة . فإنهم ضربونا وسلبونا ، وقتلوا الكبتن بول .

— وتتهم من هذا في التعدى ؟

— أتهم كل الموجودين .

— بلا استثناء ؟

— نعم أعرفهم لو رأيتهم .

فعرضت عليه المحكمة المتهمين فحذا حذو رفيقه فأخرج السيد العوفي ، ومحمد إبراهيم عبد الحق ، وسيد أحمد محمد موسى ، وغيرهم ممن أوقعهم سوء الطالع بين يديه . ثم مر

على زهران ولم يخرجه ، فتضايق أحد القضاة وأشار له عليه وقال :

— ألم يكن هذا الشخص موجوداً ؟

— نعم كان موجوداً .

ثم أشار على عبد الرازق وقال له :

— وهذا الشخص ؟

— لا أعرفه . ولكنى أعتقد أن جميع المتهمين أهانونا .

إلا أنى لا أتذكر إهانة كل واحد .

الرئيس : وإذا لم تتذكر عمل كل واحد فكيف تتذكر عمل المتهمين ؟

— لا أدرى .

فقطب أحد القضاة حاجبيه ، ولكنه سكت كاظماً غيظه ، فأدرك الرئيس ذنبه فقال له :

لك العذر في ذلك .

ثم خرج وجاء بعده المستر بورتر فحلف اليمين وسكت منتظراً سؤاله فسأله الرئيس :

— ماذا حصل لك يوم ١٣ يونيه ؟

— خرجنا للصيد فهجم علينا الأهالى فضربونا وسلبونا ، وقتلوا الكبتن بول .

— هل يمكنك تعيين المتهمين ؟

— تعيين المتهمين هذا ليس في إمكان إنسان يا سيدى الرئيس .

— لمـــاذا ؟

— لأنه لا يمكن معرفة المعتدين لطول الزمن ولأن بعضهم تغيرت سحنتهم وطالت لحاهم .

— ولكن فكر .

ثم نادى بالمتهمين المحصورة التهمة فيهم — فكاد يقول : إنه لا يعرفهم ، إلا أن نظرة من منصة القضاء أوقفت الكلمة بين شفتيه ، فهز المستر بورتر رأسه وشهد حتى قال إنه واثق بأن الأهالى كانوا مصممين على الجناية .

فسأله الرئيس بلهفة :

— وما دليلك ؟

فارتبك بورتر ، ولكنه تشجع وقال :

— دليلى ؟ دليلى ؟ عدم وجود أطفال ونساء في الحادثة .

فهمس أحد مكاتبي الجرائد في أذن رفيقه وقال له :

— إذن كانت امرأة محمد عبد النبى في الجرن ، وأن الإصابة حقيقة إصابتها وهى هناك ، فالحريق إذن من نار الضباط .

فقال له الثانى : اسكت وإلا يأمر الرئيس بأن يأتى بورتر إلينا فيخرج منا من لا تعجبه هيئته ، ويضمونا في عداد المتهمين .

فضحكا .

ثم التفت الرئيس إلى بورتر وقال له :

— هل انتهت أقوالك ؟

— نعم .

ثم خرج .. وجاء بعده عبد العال صقر مترجم ودليل الضباط . ولما دخل هذا الشاهد لم ينس أبدا أن يؤدى التحية العسكرية ، فجمع رجليه بجانب بعضهما ورفع يده بجانب جبهته ، وقال باللغة الإنجليزية بدون أن يسأله أحد :

— وى لفت اون ثرتين جيون (أى خرجنا يوم ١٣ يونية)

فصرخ فيه المستر بوند :

— ما هذا ؟ ماذا تقول ؟ أجب .

— إنى أشهد بالذى رأيته .

— أتشهد بالإنجليزى ؟ ولماذا ؟

— لأن الضباط شهدوا بالإنجليزى .

— ألا تعرف العربية ؟

— أعرفهـا .

— إذن احلف اليمين وتكلم باللغة العربية .

وفي أثناء هذه الحادثة ضج الحاضرون بالضحك ، فطلب الرئيس حفظ النظام .

ثم التفت إليه الرئيس بعد أن حلف اليمين وقال له :

— قل ماذا رأيت ؟

— رأيت كثيراً يا سعادة الأفندى ، رأيت أن الأهالى هجمت على الضابط بورتر ، وكان معهم شيخ الخفر والدنيا كلها ، وأخذوا منه البندقية ، وكانت المرأة معهم .

فارتاب المستر بوند في هذه الشهادة ، فنادى المستر بورتر وقال له :

— حقيقة أن المرأة وشيخ الخفر هجمت عليك وأخذت البندقية منك ؟

— كلا فهذا كذب . وزيادة على ذلك فإن عبد العال هرب وتركنا ، ولم نعد نراه بعد الواقعة .

فاغتاظ عبد العال وقال :

— إنى لم أهرب ، ولكن بينى وبين جناب الضابط ضغائن حتى قال هذا الكلام .

فسأله المستر بوند عن هذه الضغائن فقال له :

— إنه مدين لى بعشر شلنات ، وأبى أن يردها بحجة أننى كسرت اللمبة ، ودائماً يتهمنى بأنى أسرق الويسكى وأشربه ، وهذه تهمة باطلة .

فتضجر الرئيس من هذه الشهادة وأمر بإخراجه ، وعند ذلك طلب المستر بوند من الرئيس تأجيل الجلسة إلى منتصف الساعة التاسعة من صباح اليوم التالى .

الفصل التاسع

القتل انفى للقتل

وفي صباح اليوم التالى انعقدت الجلسة بهيئتها المتقدمة فنودى على الأومباشى أحمد حسن زقزوق الذى كان مرافقاً للضباط كحارس لهم ، فدخل (يزيق) بجزمته مما استلفت أنظار الحاضرين ، وبعد أن أدى التحية العسكرية حلف اليمين القانونية فقال له الرئيس :

ماذا حصل يوم ١٣ يونية .

أنه ١٣ وونوه ده يا افندى ؟

فتبسم الرئيس وقال : ذلك اليوم الذى خرجت فيه مع الضباط للصيد .

— الصيد يا سعادة الافندى وحياة النبى وراس سيدك السيد البدوى انى ما خرجت للصيد، ولاعمرى ضربت البندجية .

— إنت مانتش فاهم ؟

— جول يا حضرة سعادة الافندى .

– يوم ما ضربوا أهالى دنشواى ضباط الإنجليز .

– إيوه إيوه جلت لى ! يعنى يوم ما ضربت الانجليز الأهالى والأهالى الإنجليز؟ بجه صلى على النبى . جت لنجليز هاجمه على البلد وداخلين (سرعتلى يورو) وجم يموتوا الناس . أنا كنت واجف (سلاح دمتلنه) ومستعد لخدمتهم ، جمت شفت ظابط راح عامل (ايكى ادم إيللر) ومفرغ بندجيته . جامت طارت حريجه فى البلد ، جمت أنا صارخ فيهم (صاقك أول كارى آل) جام ما فهموش ندايا ، جمت عملت (صوله باق) رأيت الخلج ماسكين في بندجية واحد من الضباط جمت زعيط من علصان وعملت (حازطور وسلام طور) وبعدين راسى وميت ألف سيف ما أسيبشى البندجية فخلصتها من إيدين الفلاحين وردتها لأصحابها !

– ومتى حصل الضرب والتعدى على الانكليز ؟

– انت بتصدج سعادة حضرتك جول الناس الكدابين ؟! دول كانوا بيهزرم مع بعض وعملوا المرماح وطأشوا بالخشب مع بعضهم .

– قال حضرات الضباط إنك هربت وقت الحادثة ، ويتضح من أقوالك الكذب فأصدقنا بالحقيقة .

– جالوا إنى هربت وانت حضرة سعادتك تجول إنى كداب ! وحياتك وفداها رجبتى أنا ماهربت . بالك تفتكر محمد سعيد السودانى اللى كان جاطع الجسر على الناس

ومسكته الحكومة ؟ أنا أكلت معاه ايدى بايده . ازاى بجه أهرب النهارده ؟؟ . . .

فضحك الرئيس واستغنى عن شهادة هذا الأمباشى فأمره بالخروج . ولما خرج تطاولت الأعناق إلى كرسى جناب المدعى العمومى ؛ وأصغوا إلى ما سيقوله بتمام الاصغاء . أما جنابه فنظر في الحاضرين يمنة ويسرة ثم استهل مرافعته قائلا : لا أدرى أن شخصاً يقف في مركزى الهائل العظيم ولا يتمايل عجباً من هذه الثقة التى شرفتمونى بها ، فمكافأة على ثقتكم بى أطلب لأبناء وطنى وأولاد بلادى أشد عقوبة يتصورها العقل ياحضرات القضاة ! وإذا قلت لحضراتكم : ارفعوا من قلوبكم كل رحمة فلا أكون مبالغاً حيال أخلاق أبناء وطنى الشريرة ومهاجمة أهالى دنشواى لسادتى ضباط الجيش الانجليزى ! الظروف غريبة يا حضرات القضاة ، ووجودى في هذا المكان العظيم أغرب رغماً عن توبيخ ضميرى لى مدة من الزمن ولكننى تغلبت على هذه الفكرة ولبيت مطامعى وجئت لأكون آخر سهم ينفذ في أحشاء هذه الأمة الشريرة فتموت أبدياً فنستريح وتستريحون . المسألة بسيطة أكثر مما تتوهمون حضراتكم . عن للميجر كوفين أن يذهب مع رفقائه إلى بلدة دنشواى لعلمه بوجود أبراج للحمام كثيرة هناك فيلهوا بالصيد والقنص مدة ساعة أو ساعتين لا لطمع في لحمها أو شيء آخر . بل لمجرد اللهو فقط وصيد مائة أو مائتى حمامة . فهل تتجاسر الأهالى على إقلاق راحتهم ولو بكلمة واحدة ؟ ! أيتجاسر فلاح جاهل على أن يتعالى ويكلم سيداً إنكليزياً ؟ إن الكلام البسيط أعده — يا حضرات القضاة — جرماً — فما بالكم لو ضرب فلاح

إنكليزياً ؟ إنى لاأكاد أصدق هذا أبداً . هل يتجاسر عبد النبى على القول في التحقيق بأنه لما رأى امرأته مضرجة بدمائها غلى الدم في عروقه فمسك البندقية رغماً عنه ! ما هذا الكلام ! وهل قتل امرأة فلاحة وعشرة من أمثالها تستوجب أن يمسك البندقية في يد ضابط عظيم ؟ إن ذلك ذنب كبير لا يغتفر ! وافرضوا يا حضرات القضاة أن الضباط قتلوا جميع الأهالى ، وأحرقوا جميع الأجران ، وضربوا كل الحمام ، فهل في ذلك ذنب عليهم ؟ ألم تكن فكرة خروجهم إلى الصيد فقط لا القتل ؟ ولقد جاء ذلك عرضا في لهوهم فعملوه ليزداد سرورهم ! أفي سرور سادتنا كدر لنا ؟ كلا وألف ألف مرة كلا .

قالوا : إن السبب الأول لهذه المعركة حريق الجرن ، والثانى إصابة امرأة محمد عبد النبى والآخرين ، وهذا كذب ياحضرات القضاة ظاهر ، لأنه يتضح من تقرير نظارة الداخلية : أن حريق الجرن كان عمداً ، وإصابة المرأة كانت بلاقصد من الضباط . وهب أنه كان يقصد . أيضرب الإنجليز لذلك ؟ إن هذا منتهى الفظاعة ! اغسلوا الدم بالدم يا حضرات القضاة ! إن الكشف الطبى أثبت ثبوتاً جلياً أن موت الكبتن بول كان بضربة الشمس ، إلا أن ذلك لاينفى أنه أهين وضرب.

أنتم لا تعرفون المصريين يا حضرات القضاة . هم أشر قوم جبلوا على الشرور وإتيان كل منكر ، قوم لايستحقون الرحمة أو الشفقة ، قوم سود الله وجوههم من الكذب والنميمة ! خذونى مثالا يا حضرات القضاة واحكموا ! !

أنا نشأت فقيراً معدماً ، فلاحاً قروياً من عائلة كأمثال حسن محفوظ ومحمد عبد النبى ، فقدر الله لى الدخول في الأزهر .

فتعلمت ما جعلنى مرموقاً من رفقائى . ولا أنسى أنى طالما أمضيت الأيام أنحت الخشب من الجوع . ثم رفعنى الله إلى الهيئة الاجتماعية فبهرتنى رؤيتها . وقليلا قليلا اشتهر اسمى بين أبناء بلادى . فساعدونى المساعدات الجمة . فصرت ألبس الحرير بعد الخيش وآكل (العيش الفينو) بعد (الخندويل) وكل ذلك بعناية مواطنى وثقتهم بوطنيتى وحبى لبلادى . انظروا يا حضرات القضاة إلى موقفى الآن . وخذوا بذلك مثالا . انظروا كيف قبلت هذا الموقف بسرور . ومرقت بسهولة عن وطنيتى . واحتقرت مبدئى . وصرت ثائراً حامية على بلادى أطلب لأبنائها الإعدام والسحق . فكيف حكمكم على شعب أنا واحد منه ؟ أتحترمونه بعد أن سمعتم قصتى ، وعرفتم مقدار شعورى وإحساسى نحو هذه البلاد التعيسة ! وبدون طويل دفاع : أطلب من المحكمة سحق بلدة دنشواى بأجمعها . والحكم بإعدام جميع المتهمين ذوى الرائحة الكريهة .

ثم ختم مرافعته بتمجيد المحتلين . والمدح والإطراء الشديد في الضباط ووصفهم بما لايصف الإنسان الملائكة . ثم قعد مزوداً بنظرات التذمر والاشمئزاز .

وبعد دقيقة قام محمد بك يوسف المحامى عن بعض المتهمين وقال : المصرى يفتخر يا حضرات القضاة بأن يكون قواصاً أو مستخدماً عند انجليزى . فمابال القوم تجاسروا وضربوا الإنجليز . وقتلوا واحداً من أشهر ضباطه ؟! المسألة عظيمة وكبيرة . ولا أرى لموقفى لزوماً غير أنى مجبر على طلب البراءة لهم أجمعين ، والأمر مفوض. أفندم .

ثم تعد وقام بعده أحمد لطفى بك السيد وهز كتفيه مرتين وقال : إن هذه الحادثة لا تعتبر يا حضرات القضاة جريمة قتل بعمد أو ضرباً أفضى إلى الموت . بل اعتبروها سرقة بإكراه . وطبقوها على مواد القانون لينالوا جزاء ما جنت أيديهم . ثم قعد بعد أن فوض الأمر للمحكمة ! فقال أحد القضاة متهكماً : لقد نسى حضرة المحامى أنه في موقف الدفاع عن المتهمين ففكرنا بعقوبة غابت عنا . ولم يتذكرها المدعى العمومى ثم التفت إليه وقال له : ميرسى .

وبعد ذلك وقف إسماعيل بك عاصم . ورفع يديه وقال بصوته الجهورى الجميل : بول ! بول ! رحمة الله عليك يا مستر بول . وعوض الله الأمة الإنجليزية فيك خيراً . يا مستر بول عليك الرحمة والرضوان . فإلى الجنة إلى الجنة يا خير الضباط أجمعين . اللهم يا ذا المن ولايمن عليه يا ذا الجلال والإكرام . يا ذا الطول والإنعام . أدخل عبدك وابن عبدك الخواجه بول ابن آدم وحواء في جنات خلدك . إنك على كل شىء قدير .

ثم التفت إلى المحكمة وطلب براءة المتهمين !

فغطى أحد القضاة وجهه بمنديله . وأخذ يضحك من هذا الدفاع .. وانتهى الدفاع بمثل ما قدمنا .

ثم جلس حضرته . وبعد ذلك أخذ الرئيس يسأل كل متهم عن تهمته حتى أتم سؤال جميع المتهمين في مدة نصف ساعة كانت في أسئلة ومدافعة .

وبعد ذلك دخلوا في غرفة المداولة .

ولما استووا هناك على كراسيهم وضع أحدهم صورة الحكم وأنواع العقاب ، وأعطاها للرئيس فأخذها ثم عرضها على الباقين ، وبدون أدنى مناقشة وافقوا عليها . .

وبعد ذلك خرجوا من الغرفة إلى الجلسة . وهناك قرأ الرئيس صورة الحكم بصوت جهورى . ولكن الغرق كان يتصبب من وجهه فقال :

وحيث . . . وحيث . . . وحيث . . . وحيث . .

وحيث . . وحيث . . وحيث . . وحيث إن المحكمة قضت ثلاثة أيام تسمع فيها هذه الدعوى . وشهادة الشهود . وأقوال المتهمين والدفاع عنهم . وقد ثبت لها أن المجرمين في هذه الحادثة هم : فلان وفلان وفلان . . . الخ .

فلهذه الأسباب .

وبعد الاطلاع على المواد ٤ و٥ و٦ من الأمر العالى الرقيم يوم ٢٥ فبراير سنة ١٨٩٥ .

حكمت المحكمة حضورياً حكماً لا يقبل الطعن ولا الاستئناف.

أولا : على كل من حسن محفوظ . ويوسف حسين سليم . والسيد عيسى سالم . ومحمد درويش زهران . بالإعدام شنقا بقرية دنشواى .

ثانيا : بالأشغال الشاقة المؤبدة على كل من : محمد عبد النبى المؤذن . وأحمد عبد العال محفوظ .

ثالثا : بالأشغال الشاقة لمدة ١٥ سنة على أحمد أحمد السيسى .

رابعا : بالأشغال الشاقة لمدة ٧ سنوات على كل من : على سملك . وعبده البقلى . وعلى على شعلان . ومحمد مصطفى محفوظ .

خامسا : بالأشغال الشاقة لمدة سنة ، وبالجلد خمسين جلدة على كل من : حسن اسماعيل السيسى ، وابراهيم حسنين السيسى ، ومحمد السيسى . وأن يكون الجلد بقرية دنشواى .

سادسا : براءة بقية المتهمين .

وبعد أن فاه الرئيس بالحكم ضجت المحكمة من شدته ، وخرج المتهمون يطلبون العدل بعد أن كانوا يناشدونهم الشفقة !

وكان محمد العبد ضمن المتهمين . فافرج عنه فخرج وهو لا يصدق بالنجاة وأول شخص صادفه كانت ست الدار .

فسألته بلهفة : ايه اللى حصل يا محمد فين أبويه ؟

— آه ياست الدار .. اللى حصل ما يتعاد

— قول لى يا محمد عملوا إيه في ابويه ؟

— أصبرى يا أختى

— حبسوه ؟

فاغرورقت عيناه بالدمع وقال لها : ياريت ياأختى .

— آه يا خويه إيه اللى عملوه فيه ؟

— حكموا عليه بالشنق

— الشنق ؟ يموتوه ؟ يادهوتى يابويه ! آه ياجملى ياأبويه ! يا خراب بيتنا من بعدك يا ابويه ! آه يابويه ! يا مظلوم يا بويه؟

ثم وقعت الفتاة مغشياً عليها .

فوقف على رأس خطيبته — وهى ملقاة على الأرض — وأخذ يقلب كفيه ويقول : لا حول ولا قوة إلا بالله . والله إنهم مظلومين ، ونص المحكوم عليهم كانوا غايبين

وبينما كان الشاب غريقاً في همومه إذ فتحت الفتاة عينيها ، وجالت بنظرها يمنة ويسرة ثم صرخت : يادهوتى .. ووقعت على الأرض ثانية وهى في حالة الموت .

الفصل العاشر

التنفيذ

(الرحمة فوق العدل)

« هيجو »

أيتها السماء . . أوحى إلى الشمس أن تقف في موقفها فلا تتحرك ، وإلى البحار أن تسكن ، وإلى النسيم فلا يهب ، وإلى الطيور فلا تغرد ، ويأيتها الكواكب انظرى . وأنت أيتها الأرضين اشهدى كيف يكون تفنن الإنسان في إزهاق روح أخيه الإنسان !

كأن الشمس قد ألقت على بلدة دنشواى التعيسة في يوم ٢٨ يونية أشعة من نار وجحيم فوق مستطيل كبير محاط بجنود المحتلين شاهرة السلاح . وعلم الموت الأحمر مرفرف عليه .

هناك في هذا المستطيل المحددة أركانه بالباس الشديد الماحق ، وذلك المكان المشئوم الذى حصلت فيه المعركة الأولى ، رفعت آلة الموت الجهنمية (المشنقة) بمنظرها البشع ، وبتركيبها المرعب ، ناطقة بحروف حمراء موضوعها « القتل أنفى للقتل » والدم يغسل بالدم . وليس فيه للرحمة مجال .

هناك في هذا المستطيل المغطاة أرضه بالقسوة ، والمحددة أركانه بالشدة والصرامة . أقيمت آلة الصلب والتعذيب .

هناك في هذا المستطيل المخيف ، وضعت ثلاث خيام جعلوا إحداها لتغسيل وتكفين المشنوقين ، والثانية بمثابة سجن موقت للمعدمين . والثالثة للمحكوم عليهم بالجلد .

في الساعة الأولى بعد ظهر ذلك اليوم المشئوم جاء المتهمون يرسفون في السلاسل والأغلال . ومن حولهم جنود « الدراجون » يخفرونهم ، كانوا يحملون البنادق خلف ظهورهم ، والسيوف مسلولة في أيديهم ، فكان منظر الموكب يدل على الرغبة في التمثيل بأولئك المساكين .

وفي الساعة الواحدة والنصف تماماً ، وقفت عربة على باب المستطيل فنفخ (البروجي) في بوقه ، فأدت الجند التحية للقادمين .

وهنالك في تلك الساعة في وسط المتسع بين آلة الموت وآلة التعذيب ، وقف أولو الأمر بغير اكتراث يضحكون ويتسامرون ، كأنهم في حفلة (سينما توجراف) والتي سيشاهدونه خيال في خيال !

هنالك على بعد خمسين متراً من المشنقة ، وقفت النساء والرجال ، والعذارى والأولاد فوق بيوتهم ، فجذبت تلك الآلة الجهنمية إليها أنظارهم وحواسهم ، فجمدت أبصارهم وتشنجت أعصابهم ، فلم يمكنهم أن يحولوا نظرهم عنها .

هنالك في تلك اللحظة تجلت الطبيعة بأبهة الجلال على بلدة دنشواى لتنظر إلى عمل الإنسان !

رب ما أحوج الإنسان إلى رحمة الإنسان !

ثم نودى على أول مشنوق وهو حسن على محفوظ ، فغصت الأفواه بريقها ، واضطربت النفوس في جوانبها خوفاً وفزعاً من رؤية التمثيل الشنيع ، وأديرت الأنظار هرباً من مشاهدة ذلك العذاب الأليم .

فسار الرجل بقدمين ثابتتين ، وهو تارة ينظر إلى المشنقة ، وأخرى إلى آلة التعذيب بذهول كبير ، فضحك أكبر الحاضرين مقاماً وقتئذ من ذهول الرجل الذى هو على حافة القبر وشر البلية ما يضحك !

ولما مثل بين أيديهم قرأ مدير المنوفية عليه حكم الإعدام . فتقدم إلى أولى الأمر شاب ، خافض الرأس ، معفر الوجه بالتراب ، مقرح العينين ، وطلب منهم بتذلل أن يسمحوا له بمقابلة أبيه المعدم ليسمع وصيته الأخيرة ، وينال رضاه وبركته ، فانتهروه وطردوه وأبوا عليه هذه الأمنية المقدسة . فرجع الولد مكسور القلب باكياً لاطماً وجهه بيديه . وفي أثناء ذلك سمعت ولولة وبكاء وصياح فتطلع الرجل فرأى . ويا هول ما رأى ! رأى امرأته واقفة فوق بيته تحدق فيه النظر بعينين ملوءهما الدمع المحبوس ثم صرخت — عندما نظر إليها — صرخة اتصلت بعنان السماء وقالت : ارحمونا ياناس يرحمكم الله !

ثم رأى بجانبها ست الدار حاثية التراب على رأسها مسودة به وجنتيها . وكانت عيناها الجميلتان مقروحتين ، وقد جذبتيهما تلك الآلة الجهنمية بمغناطيس الحب الأبوى ، ثم رأى بين زوجته وابنته ثلاثة أطفال لا يزيد عمر أكبرهم عن الأربع سنوات يبكون ويصيحون بدون أن يعرفوا سبب هذا الحزن ، وبجانبهم ولد صغير يبلغ الثامنة من عمره يبكى بكاء مراً .

ولما نظر حسن محفوظ إلى عائلته — وهم في تلك الحالة التعيسة — أسى رأساً لم تحنه الأيام . ودمعت عيناه — ولم تكن تدمعهما الرزايا — ثم حول وجهه نحو باقي المساكن فشاهد الحال واحدة والمصاب عاماً فكاد يجن من اليأس .

وفي تلك اللحظة سمع عواء شديداً ، فلفت وجهه وقد حن قلبه إلى هذا العواء فرأى كلبه (سبع الليل) يجرى ويخبط رأسه في قوائم ذلك المستطيل المنكود . ولقد دمعت عين الحيوان ولم تأخذ الرحمة قلب الإنسان !

ولما انتهى المدير من قراءة الحكم استلم المشنوق جنديان ، وكان لون وجههما أصفر كلون الموتى . والتأثير باد على محياهما . وهما يبكيان فسلماه إلى عشماوى فأوثق يديه وصعد به إلى المشنقة .

وهنالك في تلك اللحظة تعالت الأصوات بالعويل والبكاء حتى ضجت ملائكة السماء ، وصرخت الأرض بما فيها من حيوان ونبات وجماد : إلهنا إلهنا ارحم المظلوم واشفق على أولاده . فالرحمة فوق العدل .

ولما استوى المظلوم فوق المشنقة ورأته زوجته عياناً صرخت صرخة دوت في ذلك السكون الرهيب وقالت :

آه يازوجى . آه يا جملى . آه يا خراب بيتك يا محفوظ . رايح فين وسايب اولادك واولاد ولادك لمين ؟

فاقشعر بدن الرجل من هذا الصوت الحنون المؤثر .

ثم سمع ابنته ست الدار تصرخ بصوت يفتت الكبد ويدمى القلب وتقول : آه يا بويه . ياخراب بيتك يا بويه . يا مظلوم يا بويه — آه يامعدوم ياجملنا رايح فين وسايبنا لمين ؟

فغشيت الرجل غمامة من اليأس . وصعد الدم إلى وجهه ، وأظلمت الدنيا أمام عينه .

ثم سمع ولده الصغير وهو يقول : مالك يا امه بتعيطى على أبويه وهو واقف أهو قدامنا على الخشبة دى . أنا باحسبه انه سافر شوفي شوفي أهو قدامنا . ورايح يجى لنا دى الوقت .

ثم صرخ يخاطب أباه قائلا : تعال يا ابويه تعال سكت أمى أحسن بتعيط عليك . تعال يا ابويه تعال احنا عاوزينك رايح فين ؟ وليه واقف كده ؟

فعندئذ قلب الرجل لهذا الصوت العذب الموثر . وضج الحاضرون بالعويل والبكاء حتى إن عشماوى مسح عينه بكمه

ولما سمعت امرأته صوت ابنها اليتيم وقعت أمام أعين زوجها مغشياً عليها كأن رؤية عميد بيتها وزوجها المحبوب على المشنقة لم توثر فيها تأثير تلك الكلمات !

فلطمت ست الدار وجهها الذى كان مسوداً بالنيلة والتراب . وأكبت على أمها تقول : آه يا امه إوعى تموتى ! وبعدين تسيبونا لمين ؟

وكان بجانبها خطيبها محمد العبد . فضمها إلى صدره والدموع الغزيرة تنهمل من عينيه . وأخذ يعزيها على هذه المصيبة .

فوقف شعر حسن محفوظ من هول هاتيك المناظر ، ثم التفت إلى بيته العزيز . وعائلته التعيسة ، وكلبه الأمين . وقال مشيراً إليهم بيد مرتعشة ولسان قوى : الوداع . الوداع يا أولادى الوداع . الوداع يا بيتى ويا بلدتى . الوداع ياست الدار . الوداع يا كلبى الأمين . ولكم رب اسمه الكريم .

ولكن أحلف لكم وأنا على المشنقة أنى مظلوم الله يخرب بيتك يا احمد يا زايد الله يخرب بيتك . ثم خنقته العبرات عند ما رأى ست الدار وقعت مغشياً عليها بين ساعدى خطيبها ففتح فاه ليشجعها . ولكن في هذه اللحظة هبط عزرائيل بجيوشه فاستقبله عشماوى . وكانت يده أسرع من لسان حسن محفوظ . فحرك اللولب . . فهوى الرجل ميتاً وهو يقول : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله .

وعند ما هوى صرخ ابنه صرخة قوية : أبويه وقع ! أبويه وقع !

ففتحت امرأة المشنوق عينيها . فرأت زوجها مدلى بين الأرض والسماء . ووجهه جهتها . ولسانه تدلى فوق لحيته البيضاء . ومنظره رهيب مخيف . فأغمضت المرأة ثانية عينيها . وراحت في إغماء شديد .

وعند ذلك ارتفعت الأصوات بالبكاء . وتأثر كل من كان حاضراً هذا المنظر المؤلم .

وبعد دقيقة جيء باسماعيل السيسى . فقرأ عليه المدير حكم الجلد بخمسين جلدة وهولاه عن سماع العقاب بالنظر إلى جثة المشنوق . وكانت فرائصه مرتعدة تأثراً من فظاعة هذا العمل — ثم تناوله الجنود وجردوه من ملابسه . ثم صلبوه على آلة التعذيب . وجعلوا ظهره وجهة المساكن لتتمكن الأهالى من رؤية الضرب كما تمكنوا من رؤية الشنق . وبعد ذلك أخذ الضارب يلهبه بسوط ذى خمس شعب مجدولة ، وفي نهاية كل شعبة عقدة من نار . فكانت كل ضربة تجمع الدم في موضعها متجمداً مكمدا . وكان يبدأ بالضرب مما

يلى قفاه وهو نازل على العمود الفقرى ثم فصاعداً إلى مبدأ الضرب . وبعد عشرين جلده جهنمية أخذ جسم المعذب يرتعش بشدة ارتعاشاً هائلا ثم خمدت أنفاسه . وأغمى عليه عليه إغماء الموت . وبعد الخمسين جلدة أنزلوه من فوق الآلة . وأخذه الجند إلى رفقائه في الخيمة ليروه فيتضاعف بذلك العذاب .

وبعد لحظة جيء بإبراهيم حسنين السيسى . وأول ما وقع نظره على شيء رأى المشنوق (عم حسن محفوظ) مكمد الوجه ومعلقاً في حبال المشنقة . فطأطأ رأسه أمام القوة القادرة وقال في نفسه : والله مظلوم يا عم محفوظ . ولاحول ولاقوة إلا بالله العلى العظيم .

وبينما كان سارحاً في بيداء الأفكار إذ سمع صوت المدير يتلو عليه صورة الحكم بالجلد فامتثل المسكين صاغراً . وكما مثلوا بالأول مثلوا بالثانى حرفا بحرف وضربة بضربة .

وبمثل هذه الشدة وفظاعة التمثيل نفذت الأحكام على المتهمين أمام نظر أهاليهم بحال فظيعة سودت تاريخ القرن العشرين . وفي الساعة الثانية والنصف من ظهر ذلك اليوم المنحوس أسدلت الستارة الأخيرة على هذه الرواية المدهشة بعد أن تركت في كل بيت من بيوت بلدة دنشواى مأتماً يندبون فيه ميتاً أو سجيناً أو مجلوداً .

دنشواى ! دنشواى ! لقد صار اسمك مخيفاً . وذكرك مرعباً . فسامحينى إذا ودعتك الوداع الأخير .

دنشواى . . دنشواى . . لا تظنى أيتها البلدة التعيسة أن المصرى ينسى نكبتك وما تحملته من ضروب الشقاء ولكن ماذا يعمل هذا المسكين ؟

دنشواى . دنشواى . ليكن اسمك مخلداً . ولكن أى تخليد ؟ ولا تنسى أن تقصى على أبنائك في الأجيال الآتية ما حل بك . ليعرفوا مبلغ تمدن القرن العشرين تحت سيطرة الإنجليز .

دنشواى . دنشواى . لا قدرة لى على عزائك ، ولا شىء عندى أهديه اليك تذكاراً مؤلماً لهذه الكارثة غير مداد قلم كاتب سطّر حوادثك في قالب قصة جعلها هدية إلى (عشماوى) جلاد مصر الذى قبض أرباعاً من أرواح أبنائك ببساطة وسهولة .

دنشواى . دنشواى : إنى تجاسر فأقف تحت سمائك . وأركع بين أجرانك يرفرف على حمامك الذى سبب إلى الأبد أحزانك . وأطلب من الله لك العزاء . ولأهلك الرحمة والرضوان .

تمت

المحتوى

صحيفة

مقدمة بقلم : يحيى حقى . . . . . (أ)

مقدمة المؤلف ١

الفصل الأول -- نسمات الأصيل ٩

الفصل الثانى -- الحديث ذو شجون ١٣

الفصل الثالث -- بين الحمام والحمام ١٩

الفصل الرابع - شهيد سرسنا ٣٣

الفصل الخامس -- فى قصر الدوبارة ٣٧

الفصل السادس -- بين الهلباوى وضميره ٣٩

الفصل السابع -- بعد المعركة ٤٣

الفصل الثامن -- المحكمة المخصوصة ٥١

الفصل التاسع -- القتل أنفى للقتل ٦٣

الفصل العاشر - التنفيذ ٧٣